زلة عشق

لا يجوز نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو نسخ مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله على أي نحو بطريقة إلكترونية أو بالتصوير أو ترجمته إلى أية لغة أخرى دون الحصول على موافقة الناشر والمؤلف مقدمًا.

All Rights Reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted, in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording, or otherwise, without the prior written permission of Bibliomania Ltd.

- **الكتاب: زلة عشق**
- **المؤلف: فاطمة هاشم**
- **نوع العمل: رواية**
- **الطبعة الأولى 1440 هـ - 2019 م - القاهرة**
- **الناشر: ببلومانيا للنشر والتوزيع – مصر**

- **رقم الإيداع : 2019 / 25647**
- **الترقيم الدولي (ISBN): 978-977-6754-59-2**

- تنسيق وإخراج: فريق إعداد ببلومانيا
- المدير العام: جمال سليمان
- العنوان: عنوان (1): 15 شارع السباق – مول الميريلاند – مصر الجديدة
  عنوان (2): 29 شارع الكمال – الأميرية – القاهرة
- تليفاكس: 002022402029 - 002026061014
- محمول: 00201208868826 – 00201065534541 – 00201210826415
- صفحة الدار على موقع فيسبوك: https://www.facebook.com/bibliomania.eg/
- الموقع الإلكتروني: www.bbibliomania.com

كل ما ورد في هذا الكتاب من أخبار وأحداث وآراء يعبر فقط عن رأي الكاتب، ولا يعبر بالضرورة عن رأي الناشر، ودون أدنى مسؤولية على دار ببلومانيا للنشر والتوزيع

زلة عشق

رواية

فاطمة هاشم

www.bbibliomania.com

إهداء:

إلى من حسبته قدري.. وكان خطوة في الطريق إليه..

"قاعدة أخرى

إن الطريق إلى الحقيقة يمر من القلب لا من الرأس فاجعل قلبك لا

عقلك دليلك الرئيسي

واجه ، تحد ، وتغلب في نهاية المطاف على " النفس " بقلبك

إن معرفتك بنفسك ستقودك إلى معرفة الله ”

إليف شفق

"في حضرةِ من أهوى

عَبَثت بي الأشواق

حدّقتُ بلا وجهٍ

ورقصتُ بلا ساق ”

محمد الفيتوري

لا يمكنني أن أخطئ في تمييز ذلك الوجه، أو تلك الكتفين العريضتين، أو ذلك الرأس المرفوع أينما رأيتهم ولو أخطأت في تمييز ذلك كله، لكني سأميز لون العينين على الدوام، وقد سلبتا لونهما من الغابات المتوحشة..

ما الذي أتى به إلى هنا؟

يجب أن أهرب، أخيال هو كالذي اعتدت رؤيته عقب انفصالي عنه، أم حقيقة؟، لكنني لن أبقى لأتأكد..

ركضت مُبتعدة نحو السيارة.. تاركةً الحديقةَ خلفي، حيثُ كنتُ أمارسُ رياضةَ الصباحِ وحدي، لا يجبُ أن تبقى المرأةُ وحدها، فتكون فريسةَ سهلةَ للشيطان، هكذا اعتادت أمي أن تقول، لعنتّ الركضَ في الصباحِ، أرفضُ أن أظن أني كنت أهرب راكضة منه خلال خمس سنوات، ووجدني هكذا دون جهد، فهو يعيش في السعودية أصلاً..

جلستُ خلف المقود، تنفستُ بعمقٍ، لابد أنه مجرد خيال جمح نحو ذلك الصندوق المغلق بداخلي، مغلق بإحكام، مُهمل حتى تفتته رحى الزمن ..

أدرت المُحرك، شخر بنعومة وشعرتُ بأن صوته أعادني إلى الواقع،

انطلقت بسيارتي وانسللتُ ببطء بين السيارات نحو بيتي، ابتسمتُ.. بيت..هل من كلمة أكثر دفء من كلمة بيت؟، سأحمل معي فطورًا ساخنًا، فطائر طازجة رُبما، ستسعد غنى بذلك حتمًا، فهي تعشق فطائر الجبن، وتبقي الحواف الجافة لي، أليست تلك وظيفة الأم؟ أن تخفف بوجودها قسوة الواقع وأن ترطّب جفافه حتى يشتد عود فلذة كبدها؟ وقفت بجانب مخبز الفطائر، نبضت الذكرى من جديد، فقد اعتاد تمامُ أن يتناول الحواف الجافة التي كنت أعافها، ظننت أنه أحبني بقلب أم، ثم تبيّن ألّا قلب له.. فيروز.. تترنم ب (قلّو عيونو، مش فجأة بينتسو) عيناه كانتا قاتلتان، سألقي اللوم على فيروز، سأغلق المذياع للأبد، وسأهجر منطقة الحنين، إنها كرامتي وحسب، فجرحها يثور كل مدّة، تذكّرني بما لن يكون، نفضت غبار الذكريات عن صباحي، نزلت بنشاط واشتريت الطعام، فطائر الجبن لابنتي الصغيرة، فطائر لحم الدجاج لإيهاب، نصفي الأقوى، والأكثر صلابة، ولم أحضر أي شيء لي، فجأة شعرت بالتخمة، عدت للسيارة ببطء.. وجدت ورقة سوداء أسفل ماسحة الزجاج الأمامي..وضعت الطعام فوق غطاء السيارة

وحملت الورقة ببطء وقرأتُ (إن أريد إلا القرب يا قلبي، ولست أرضى بملك الأرض لي بديلًا) أخذ قلبي يدق كمطرقة في أذني، تلفتُ حولي بذهول، تباً، تباً تباً، مزّقت الورقة لقطع صغيرة يستحيل إعادة تجميعها، ثم كوّرتها وألقيتها بعيدًا، لكن الأمر لن ينتهي، شممت ريحه، وجدت بقايا غبار أسود لامع على أطراف أصابعي، عطره التصق بيدي، قربت يدي من أنفي ببطء وارتفع الدم لرأسي.. وارتدّت ذاكرتي بصيرة.. وهم، كل هذا خيال.. مسحت يدي بثيابي برعونة.. وأحاطت بي الرائحة، التصقت بي كبشرة ثانية.. كم أنا حمقاء.. حملت الطعام وعدت لأجلس في السيارة، انطلقت مُسرعة أهرب من هذياني، تبًا لك يا تمام..

ooo

فتحت باب المنزل بيدين مرتجفتين، أحبس أنفاسي كيلا أستنشق الرائحة، دخلتُ ببطء، تحسست الأصوات حولي، لا زالا نيام، إيهاب وغنى، ركضت نحو الحمام في جناح الضيوف، تخلصت من ملابسي، نظفتُ يديّ حتى صارتا حمراوين... غسلت جسدي بسرعة... ارتديت معطف الحمام وخرجت، رميت ثيابي الخارجية في القمامة، ومعها ما

خزنته ذاكرتي من الكلمات التي كُتبت، وضعت القمامة أمام الباب الخارجي وأغلقت الباب واستندت بجبيني عليه، أستعيد أنفاسي،

(ملاذ؟)

استدرت برعونة أقابلُ العينين السوداوين،

(هل أنت بخير؟ تبدين كمن رأى شبحًا)

رمشت بعينيّ مرتين، تنفست بعمق وضممت زوجي بين ذراعي، ودفنت وجهي بصدره.. وعدت أشعر بالأمان..

ooo

(لم أر شبحًا، إنه زحام الصباح وحسب، لقد اشتريت الفطور)

تركتُ دفئه ببطء وابتسمت في عينيه، وأخذ جنون الصباح ينسحب في حضرة رجولته،

(القهوة جاهزة، تناول فنجانًا ريثما أوقظ غنى، لنفطر معًا)

سرت نحو غرفة فتاتي ثم استدرت ونظرت نحوه وهمست

(أحبك)

رد بابتسامة عصماء، آه من رزانتك ..

فتحت باب غرفة فتاتي الصغيرة، طالعني الرقم ثلاثة، اقتربت من سريرها، لا زالت رموشها مستلقية بدِعة تلامس الخدين الناعمين، قبلتها، وانسحبت أشباح الماضي كلها، أخذت ألامس ذقنها الصغيرة، أهمس باسمها بنعومة، حتى أخذت تستفيق، لم أشعر كم كنت ناقصة حتى حملتها بين يدي، قطعة صغيرة، حمراء اللون، سعادة غمرتني عندما ضممتها، كأني أضم إلي قطعة من الجنة، قطعة من روحي هي، بوجودها أحسست بالاكتمال، تمتمت:

(ماما)

ضممتها إلي، حبيبة ماما وقلب ماما وفرحة ماما..

(صباح النور)

نور أنت أضاء حياة بدت قبلك ليل يعقبه ليل..

تمتمتُ (أحضرتُ الفطائر لحبيبتي)

قفزت بفرح جالسة، عانقتني وهي تضحك بسعادة، بين ذراعيها الصغيرتين كون يسع هذا الكون بأكمله، أوقفتها وأمسكت يدها الناعمة، وأحسست بسلام تام..

جلسنا معًا نتناول الطعام، أنا وغنى متجاورتين، وإيهاب في الطرف الآخر من الطاولة، كان يتناول طعامه ببطء، يرتشف شايه حُلوًا حد الجرح، ويطالع الأخبار في التلفاز، رن جرس الهاتف الأرضي، نظرنا نحو بعضنا، نظر نحو غنى للحظة وقفز واقفًا، (سأرد)

بالطبع لن يبقى وحده مع غنى، ذهب ليجيب، سمعتُ همهمته، خطر لي بأن إيهاب لم يقض يومًا وقتًا لوحده مع ابنته.. عاد ليجلس، وقال:

-إنها زوجة كمال تسأل في أي ساعة سنصل الحفل الخيري، لتنتظرنا وكمال في بهو الاستقبال لندخل الحفل معاً..

-فتاة لطيفة(ضحكت) لا تشبهني عندما كنت عروساً جديدة..

-كنتِ متصالحة مع عزلتك، لا تمانعين أن يكون انخراطك في مجتمعك الجديد بشكل بطيء..

ارتبكت ملامحي.. رمشت بعينيّ، أمرتُ نفسي بصمت: لا تفكري بسبب حبك للعزلة في ذلك الوقت، أشحتُ عيني عن وجهه وركّزت اهتمامي على غنى رغم أنّها كانت تعتمد على نفسها بشكل جدي وتام، وعلّقت:

-أي ساعة سننطلق؟

-الثامنة..

-أذهب معكما؟ (قالت غنى بصوتٍ هامس وهي تمسك يدي وتنظر نحوي بعينين واسعتين تسلبان القلب قلبه(

-بالطبع..

نظر إيهاب نحوي وزفر أنفاسه ببطء وهو يهز رأسه يمنة ويسرة، ضمتني غنى.. وابتسمت له باعتذار، أينما أكون ستكون غنى..

-لم تمانع وعد في مرافقتنا لتعتني بها.. (قلت من فوق رأس ابنتي)

-كيف تمانع ونحن ندفع لها ما ندفع كأجر شهري؟

ثم نهض مجددًا، وذهب نحو الغرفة، أنزلت غنى عن كرسيها الصغير ووضعتها في زاوية لعبها الخاصة، ثم لحقتُ به، دخلت غرفتنا، كان في غرفة الخزانة الصغيرة يحضّر ثيابه، وقفت بجوار الباب، خرج يحمل بذلته الكحلية قال ببطء:

-تعلّقك بغنى يكاد يكون مرضيًا..

ضحكتُ بارتباك وأنا أتجه نحو الخزانة حيث خرج توًا وقلت وأنا أختار له قميصًا مناسبًا

-لا شيء مَرَضي عندما يتعلق الأمر بعلاقة الأم وأولادها..

خرجت وأعطيته القميص، رماه على السرير وأمسك بيدي..

-علاقة الزوجين تحتاج لأن تكون ثنائية، بعيدًا عن الأولاد..

-هل أنا مقصّرة بحق علاقتنا الزوجية؟

ترك يديّ وقال وهو يُخرج القميص من الغلاف باهتمام زائد ويفرده

-لا تقفزي لاستنتاجات تؤذي مشاعرك، لست مقصّرة، لكنها غنى باتت موجودة كشبح صامت حتى عندما نكون وحدنا..

عدت للخزانة وأخذت أختار ربطة عنق له، دمعت عيناي سلمته ربطة كحلية من الساتان كانت الأقل تفضيلًا عندي.. وهمست:

-ذلك لأنك تصر على وجود مسافة بينك وبينها.

تناول الربطة وعقد حاجبيه وابتعد عني وهو يسوي أزرار القميص، أحسست بأنه يصرّ على أسنانه وقد نفرت عروق جبينه للحظة، ثم غدا وجهه محايدًا ولم يعلق، اقتربتُ منه وأخذت أساعده في عقد ربطة عُنُقِه،

ثم نظرت في وجهه وقابل عينيّ قلت بهدوء:

-هل يتعلق الأمر بإبعاد والدك لك عن عائلتك عندما كنت في العشرينيات؟

زفر بملل وابتعد عني وهو يسوي ياقته:

-لا طبعاً، لقد تصالحت ووالدي وتعلمين ذلك، كما كنّا مُتقاربين عندما كنت طفلًا، لست أعاني أي عقدة نفسية فوفري علي تحليلاتك.

-لا تسخر مني.

عاد بسرعة ووقف أمامي وقال وهو يلوح بإصبعه أمام وجهي

-لم تدورين حول حقيقة أنك أنت التي لديها عقدة تعلّق لأن والديك انفصلا عندما كنت في الخامسة عشرة من العمر، وأنهما وبسبب عملهما وتنقلكم الدائم كانا دائمي الانشغال عنك، ولذلك أصبحت شديدة التعلق بهذه الفتاة؟

لم أنطق بكلمة، أخذت أرتجف من الداخل، أحسست بالطفلة داخلي تختبئ مبتعدة وهو يلقي عليها اللوم، قلت ببرود

-هذه الفتاة ابنتنا، فانس هذا الكلام كله وتعامل معها على هذا

الأساس.

ابتعد عني، كان يعلم أنه يقف أمام درب مسدود عندما أتكلم بتلك النبرة، ارتدى جاكيته، ومسح بيديه على شعره القصير جداً والذي يغطي رأسه عدا الصدغين ثم استدار ونظر في عيني وقال:

-أحبك، لطالما فعلت كل ما بوسعي لتسعدي، أنت قبلتي حيثما أذهب، هذا البيت، وكل ما نملكه، وكل ما أفعله لا يهم، ما يهمني أنت وفقط، أنت ملاذي، لكن هل بات في قلبك متسع لي؟

اقتربت منه ببطء، ضممته إلي، مسحت على شعره وقلت

-بل قلبي يتّسع بك..

أحسست بذراعيه تشتدان حولي لدرجة الألم ولكن لم أنطق.. حتى سمع فحيح الألم في أنفاسي فتركني فجأة، اتجه نحو الباب الذي يصل غرفة النوم بمكتبه، غاب لحظة وعاد يحمل حقيبة العمل، أخذت أتحسس جسدي حيث حفرت يداه فيّ، قبّل جبيني ثم قال وهو يتجه نحو الباب

-سأتأكد من الحجز بنفسي، لأجل سفرك إلى والدتك..

لحقت به مسرعة

-وهذه السنة أيضًا لن ترافقنا؟

لم ينظر لي وأجاب بصوت عادي..

-لا

خرج وأغلق الباب خلفه، عم الهدوء، بقيت جامدة مكاني، والآن ماذا؟، لطالما تكرر هذا السؤال خلال السنة الأولى لزواجي بإيهاب، عندما يذهب لعمله وألبث وحدي، أحس بالهجر..

-ماما

استدرت ونظرت نحو غنى وارتفعت ابتسامة الحب نحو شفتي، طفلتي من أنقذتني من ضياعي ذاك، وجودها طرد إحساسي بالهجر، حُبها أبعد شبح الوحدة للأبد..

-حبيبة ماما..

ركعت وضممتها بين يدي وقلت وأنا أفرك أنفي بأنفها:

-هل أنت متحمسة للسفر لزيارة جدتك؟

قفزت وأخذت تتراقص حولي وهي تصرخ وتضحك بفرح، هل من صوت أجمل من هذا الصوت؟

***

جلستُ أمام المرآة في غرفتي أحضّر نفسي للخروج، أرتب المهام بعقلي، تسوق لشراء هدايا لأمي وعائلتها في السعودية، شراء حاجات لي ولغنى سنحتاجها خلال السفر، ثم زيارة صالون التجميل لأجهز نفسي للحفل الخيري في المساء، ثم ..نظرت في انعكاس عيني العسليتان في المرآة.. نبضت بي ذكرى ما حدث صباحاً.. لا يمكن أن يكون تمام من كتب تلك الملحوظة السوداء، ربما وُضعت هناك بالخطأ، وربما من كتبها معجب بشعر تمام فاقتبسه من ديوانه الذي كتبه قبل ست سنوات، شيء ما بداخلي سخر من تخيلاتي تلك، وهمس وماذا عن رائحة العطر؟، مزيج القرنفل والبهارات وشجر الغابات ذاك؟ مستحيل، تمام لا يقدر أن يدخل سوريا، ذاك سيعرضه لخطر السجن، هذا ما قاله مرة، ولم أنس كلمة قالها.. تبًا لذاكرة العاشق، لا تنسى، لكني ما عدت عاشقة،

ولّى عشقه لغير رجعة منذ زمان هجره، لكن أنّى لي أمر النسيان؟ وقفت وضربت الطاولة بيدي، سأقطعه بيدي لو حاول أن يعكر صفو حياتي.. ما حدث هذا الصباح كان مجرد وهم.. تمام ميت بالنسبة إلي.. خرجت مسرعة من غرفتي، أرتدي حذاء الركض، كنت أواجه المشكلات الكبيرة بالهرب منها، أبتعد عنها حتى تصبح صغيرة من بعيد، ثم أدهسها بضربة قاضية، ليحاول أخو الشيطان ذاك أن يقترب مني، لأذيقه طعم حذائي. حملت ابنتي وخرجت. ما عاد في حياتي مكان للشعر.

°°°

كنت أقود السيارة متجهة نحو المركز التجاري، غنى تجلس بجانبي، يحيط بها حزام الأمان، تنظر بشرود خارج النافذة، في لحظات كهذه أتمنى وجود صديقة أخبرها كل شيء، لكن حياة التنقل قللت فُرص امتلاكي أصدقاء يمكن الوثوق بهم، عندي معارف كثر، حيثما سافرت، عائلة والدي في سوريا، وعائلة أمي في لبنان، ولم أكن على صلة وثيقة

بأي منهم، أشتاق لطفولتي في البرازيل، كثيرًا، الحياة هناك كانت أكثر دفءً، ومليئة بالألوان، والغابات والرقص والموسيقى والكرنفالات، فالمكان هو ما يجعل طفولة أحدنا سعيدة، فالطفل منّا يحسب نفسه جزءً من المكان.. وكلما كبرنا ننفصل بأنفسنا عن مكان عيشنا حتى نصبح كيانًا مُستقلًا، تبدأ غربتنا عندها، لكن البرازيل منحتني طفولة سعيدة، إلى حد ما، وهكذا عندما عدت إلى دمشق في عمر العاشرة صفعني اختلاف الثقافات، وفقد الأصدقاء.. الشيء الوحيد الذي جعل كل ما حدث مُحتملًا هو اللغة.. فلطالما سبب لي اختلاف اللغة بين داخل المنزل وخارجه في البرازيل دوارًا، وعندما أحاطت بي العربية من كل جانب، شعرت بأمان نسبي، فكانت اللغة صديقة جديدة لم تبارحني قط، كأنها كائن حي، وعندما كرهت تمام، والشعر، عدت وكرهتها، فقد كان شعره مصيدة شعوري.

وصلتُ المركز التجاري، ركنت سيارتي في موقف السيارات، حملت حقيبتي ونزلت، استدرت حول السيارة وحملت ابنتي، (دعيها تمشي) لطالما تذمر إيهاب من حملي لها، لكن تسعة أشهر حمل لم تجعلني مستعدة

لأن أتوقف عن حملها، أحتاج لأستعيد ذكرى حملي بها، لأحس بها جزءً مني من جديد، عندها أشعر بقوة ليس لها مثيل.. قابلت المربية وعد لدى باب المركز التجاري، لطالما مازحتني وعد بأنها محظوظة للعمل مع أم مثلي، لا تستطيع الابتعاد عن طفلتها بهذا الشكل، كأنه عمل ذو مجهود منخفض، ومرتب عالٍ، لكنني لم أحس بغبن، فقد كانت وعد حاضرة على الدوام وفي كل وقت، أحيانا أحس بأنها الصديقة التي أحتاج إليها، حتى تسلك ذلك السلوك حيث توافقني على كل ما أقوله وتُكيل لي المديح، فأدرك أنها تقوم بعملها وحسب، أتذكر أيامًا حسبت فيها أني أمتلك أصدقاءً، لكنهم كانوا أصدقاء تمام، وهجرتهم معه.. خبطت قدمي بالأرض عندما أدركت أني كنت واقفة ببلاهة أتبع بعيني وعد وغنى وقد ذهبتا لركن اللعب في المركز التجاري، لكنهما كانتا قد غابتا عن نظري، بينما أقف جامدة، إنه ذكر تمام وابتعاد ابنتي عني، يمتصان قدرتي على الحركة، أجبرت قدمي على السير، دفعت عربة التسوق أمامي، اتجهت نحو السوبر ماركت لأشتري مجموعة من الأطعمة الشاميّة كهدية، كانت أمي امرأة لبنانية

جدًا، لكنها تعشق طعام الشام، تعشق مربى الورد، والنارنج، وتحب الكشك، وقد كانت طاهية ممتازة، تطهو أطباقً من اختراعها، تدمج كل ما تعرفه من ثقافات، لبنانية وسورية وبرازيلية وأخيرًا، سعودية، تستعد لأن تُطلق كتاب طبخ جديد يحوي ما اخترعته من وصفات، بالإضافة لنصائح لطهو طعام صحي للأطفال.. لقد اتصلت وأخبرتني أن الكتاب وما يحويه هو محاولة اعتذار لانشغالها عني عندما كنت طفلة، وتركها لي خلال المراهقة بعد طلاقها من أبي، ثم ابتعادها للزواج مرة ثانية، حيث ستتبرع بعائداته لمراكز رعاية الأيتام، مدحتها لذلك، رغم أني لم أكن ألوم والديّ لما حدث خلال طفولتي، أو لاحقًا، لم أكن أميل للوم الآخرين على ما يحدث في حياتي الخاصة مهما يكن، أظن بأنّ سلوكي هذا له علاقة بجلوسي الطويل في وسائل النقل كلها، فقد سافرت بالسيارة والطائرة والقطار والباخرة، خلال السفر توقن بأن وحدتك لا مفر منها أحيانًا، وأنه يمكنك الاعتماد على نفسك أغلب الوقت، ورغم أنك تتشارك وكثيرين وجهة الرحلة ذاتها، ولكن لكل

منكم اتجاه خاص يضبط بوصلته تبعًا له.. ساعات الوحدة تلك تُكسبك ذاكرة لا تَنسى، وهذه المشكلة..

تركت السوبر ماركت واتجهت نحو ركن الهدايا والتحف.. غمرني جمال المكان وما يحتويه من بضائع..

اقتربت من مرآة بيضاوية الشكل يحيط بها إطار مشغول من المعدن والمجوهرات ..بدت كنافذة إلى عالم آخر.. نظرت لانعكاس صورتي فيها، وكل ما استطعت أن أراه هي صورته التي ارتسمت في انعكاسي..

أخذت أهمس:

-لا لا لا..

-بلى...

سلبني صوته الإحساس بما حولي... إنه هنا، حقيقة لا خيال... واقع لعين... استدرت نحو تمام وأنا أدفع العربة بصوت مسموع...

-لا يمكنك أن تفعل هذا بي...

كرهت نغمة الرجاء في صوتي، بعد خمس سنوات لم أره فيها، ولست

أبغي الآن رؤيته...

-وماذا فعلت؟

كان يقف أمامي، يرتدي بذلة سوداء، يرتدي كنزة لا قميص، يمقت الأزرار، لا يعترف بوجود ربطة العنق، ولا يخضع لقوانين القلب.

-هل تلاحقني؟

وضع يده في جيب بنطاله، لم يرد، أخذ ينقل نظره ببطء فوق جسدي المغطى بثياب خروج رياضية خفيفة وفاتحة..

-بل أنا في سوريا لأجلك...

كان الاستماع إليه كالاستماع لأغنية حزينة من مذياع باص، مفروضة عليك ولا يمكن تغييرها وتَحمِلُ في ثناياها الدموع... الحسرة والكثير من الندم...

-متى كنت تفعل أي شيء لأجلي؟

خطأ.. هذا سؤال مُحرم.. جوابه سيفتح جبهة مع الماضي، ستردديني قتيلة وأكملت مباغتة وقد همّ بالكلام..

-لا أريدك هنا... في أي مكان قريبًا مني...

-إذًا ستكون الأيام المُقبلة عصيبة عليك.

متى لم تكن أيامي عصيبة؟ متى كنتُ أعيشها بسهولة؟ مذ تزوجت إيهاب أصبحت روتينية، وآمنة، ثم جاءت غنى.. وذقت حلاوة الحياة.

-أنا امرأة متزوجة...

اقترب مني، أخذت الهالة المحيطة به تقتحم مساحتي الشخصية، كل ما بي يدعوني للهرب... كل منا يود أن يهرب من أخطاءه، وتمام هو قطعًا أكبر خطأ ارتكبته في الحياة.

-متزوجة من إيهاب رامي... في الشهر الثامن عام ألفين وخمسة... بعد شهر من تركك لي...

لا تُعلّقي، لا تُعلّقي... همست في قلبي... كيف أتركك وأنت لم تمسك بقلبي أصلاً؟

-حملتِ بابنتك بعد عام ونصف... بعد أن خضعت لعملية زرع...

-كيف تجرؤ؟

ضربت الأرض بعربة التسوق.. سلوكي بدأ يجتذب الأنظار..

-هل باتت تنقصك الجرأة؟

-ينقصني الصبر لأحتمل كلامك أكثر مم فعلت.

-لم تزوجته؟ همس سؤاله همسًا..

-بالتأكيد أسبابي تخصني وحدي.. (قلت بصوتِ عالِ)

-عندما تلاحقين رجلًا بحبك لسنتين كاملتين وتجعلينه كالمجنون... ثم تتزوجين من آخر بعد شهر من هجرك له... فذلك يجعل أسبابك شيء يخصه كذلك...

اهتز جسدي بضحك مكتوم جعله يتراجع خطوة للوراء... رجل معجون بالشعر والسياسة... يجمع أبهة الكذب دون أن يكذب حقًا... وقدرة غريبة على التلاعب بالألفاظ وتحوير الأحداث لصالحه... لكنني وللأسف أعرفه جيدًا، أكثر من نفسي ربما... أذكر لقاءنا الأول.. كنت في الثانية والعشرين، نظرت في عينيه بعد أن قدمتني أمي له.. كانت ليلة صيف.. كحلمٍ مضى.. عيناه لمعتا في تلك العتمة الغريبة، لكنني علمت وبعد نظرة واحدة إليه أنه قادر على اغتيال قلبي وحرقه دون إبقاء رفات.. ودون تردد سلمت قلبي لصدره.. للثقوب السود\الخضر في عينيه ..أضعت نفسي في عوالمه وها نحن الآن..

-لا تعاملني كشاهدة على منصة اعتراف بينما تصر على إقناعي بأني لم أشهد أي شيء...

-لقد شهدت الكثير... لكن ذلك لم يغير من الأمر شيئاً...

-لا أعلم لم جئت...

-يمكنك أن تسألي..

-ذلك سيعني أني مهتمة بما تفعل، لكنني في الحقيقة أبعد ما أكون عن الاهتمام بكل ما يتعلق بك...

حمل المرآة التي كنت أنظر إليها... قلبها بين يديه ببطء... لامسها بأصابعه... ثم رفعها نحو وجهي ..

-ما كل هذه المرارة؟ كنت تنبضين بالحياة والآن تنبضين بالسخرية..

لم أرد، بقيت أنظر نحوه، أخذت أنسحب وأنا أجر عربتي وهمست من خلال أسناني..

-ابتعد عني، وابق بعيدًا...

-حياتك وغنى في خطر...

أصبت بالجمود... لم أشعر بالخطر حتى اللحظة... غنى... دفعت عربة

التسوق نحوه بغتة... حشرته أمام الرف... لم يستطع المقاومة بينما يداه مشغولتان بحمل المرآة... سمعت هسيسًا من بين أسنانه... فدفعت العربة أكثر لأؤلمه...

-سأقتلك لو اقتربت منها... ثم سألتهم عينيك... أقسم، غنى هي اللون الأحمر في حياتي.. اقترب منها.. ولن تعيش لترى يومًا آخر.

ثم سحبت العربة بعجلة.. واستدرت مبتعدة.. كنت أشتعل غضبًا.. ثم عاد يظهر أمامي.. كأنه استدار حول الرفوف.. توقفت.. فكرت جديًا برمي العلبة المعدنية نحوه لتفتح خندقًا في رأسه.. اقترب مني..

-حسنًا سأوقف اللعب...

لعب؟ كررت بداخلي.. امسك العربة من الجهة المقابلة ونظر في عيني.. حيث اجتمع كرهي بأجمعه..

-ستحتاجين روح القتال هذه يا ملاذ... لكن يجب أن تعرفي عدوك أولاً... وعندما تفعلين أراهن بأنك ستنسين أمر سفرك المرتقب... وستنسين أسطورة زواجك السعيد... ستأتين إلي، وسأكون بالانتظار...

رفع نظارته الشمسية إلى عينيه بحركة واحدة وابتعد... غنى... تركت العربة وركضت نحو ركن اللعب... أخذت أنظر حولي بقلب خافق وعينين دامعتين... أكره شعور الخوف... رأيتها تخرج تنزلق عن لعبة "التزحلق".. ركضت أتلقفها قبل ان تلمس الأرض.. وضممتها إلي بقوة.. تبًا لك يا تمام ..تململت بين ذراعي وقد آلمها ضمي لها بتلك القوة ..

-سيدة ملاذ؟

انتشلني صوت موظفة المركز من دوّامة الخوف.. نظرت نحوها وأنا أخفّفّ قبضتي حول صغيرتي دون نية بتركها ..

-هل أعبّئ الأغراض التي في العربة في أكياس لتحمليها معك؟

أومأت بنعم دون أن أرد، اقتربت وعد وتبرّعت بمرافقة العامل الذي يحمل الأغراض نحو السيارة.. وطلبت مني بلطف أن أسبقها.. كيف يمكن للقاء واحد أن يسلبني الاتزان؟

°°°

جلست في السيارة أنتظر وصول وعد والأغراض... غنى ناعسة

بجانبي... ما الذي تريده يا تمام؟

ستنسين أسطورة زواجك السعيد...

ما الذي يعنيه؟

لا يمكن أن يكون حاقدًا.. فلم أفعل ما يؤذيه.. أبدًا.. رغم امتلاكي ذريعة لذلك.. فقد استنزف قلبي دون رحمة.. بل وعقلي.. بل كل خلية مني..

لم يبد حاقدًا..

بدا واثقًا، وهذا ما يخيف.. كان قبيلة رجال في جسد واحد.. لكن عندما ينبض قلبه يتحول إلى جبان..

مهندس طموح.. بل لا يعرف طموحه كلمة حدود.. الهندسة تمثل الجانب المنطقي فيه..

وفي الجانب الآخر يسكن شاعر سريالي.. يضبط كلماته بالمسطرة..

لا يطلق كلماته جُزافًا.. هل يجب أن أحس بالخطر؟ وعادت إلي مخاوفي التي أخذت تعتريني منذ يومين..

ooo

قبل يومين..

كان صباحًا عاديًا.. استيقظت باكرًا كعادتي.. نسيت نفسي في روتين الصباح الذي أحب، صلاة.. تأمل روحي.. دعاء.. الحب دعاء.. هكذا قالت معلمتي الروحية.. الدعاء لزوجي، لابنتي.. لوالدي الذي مات.. أحتاج لصلة معه.. ولو كانت صلة من جهة واحدة.. أحتاج أبي حيًا بداخلي.. ثم ارتديت ثياب الركض ووضعت القهوة في آلة تحضير القهوة التي حملها إيهاب معه من إيطاليا في رحلة عمله الأخيرة.. التي سافر خلالها وحيدًا دون مساعدته.. التي كانت قد سافرت إلى الإمارات لتنوب عن الشركة في حضور معرض هناك.. ضبطتُ المُؤقّت، وغادرتُ البيت للركض في الحديقة المجاورة ...وعندما عدتُ وجدت جريدة الصباح ملقاةً أمام الباب حملتها ودخلتُ.. كان زوجي لا يزال نائماً.. ملأتُ فنجان قهوة وجلست أقرأ الجريدة.. عندها قرأت الخبر.. دُنيا مساعدة إيهاب مفقودة منذ يومين، لقد سافرت قبل سبعة أيام..المفروض أن تعود منذ أربعة أيامٍ.. لكنها مفقودة ..!عندما

استيقظ زوجي لم يذكر الأمر.. قرّبت منه الجريدة.. أبقيتها مفتوحة على الصفحة التي تحوي ذلك الخبر.. وأعطيتهُ فنجان قهوته..

لم يبد ردة فعل، أمقت صمته الدائم..

-مساعدتك مفقودة..

ارتشف القليل من قهوته ..

-أعلم.

-لِمَ لم تُخبرني؟

-ستبحثين عنها؟

في لحظاتٍ كهذه يبدو إيهاب بعيدًا عني.. كأننا غريبان.. في لحظات كهذه أسألُ نفسي هل أعرف زوجي؟ أحفظُ التاريخ الذي أخبرني إياه، ولكن يقيني بأنّ ما يُخفيه هو مختلف عم يظهرهُ يخيفني، أحترم مساحته الشخصية ووقته الخاص وحاجته للعزلة بين الحين والآخر، لكني هذا أمر مختلف، أن أعلم أخبارً تتعلق بزوجي من الصحف لا منه، هو أمر جارح.. أطرد تلك الأفكار، فهو لا يعرف ذلك الجزء من ماضي كذلك.. لا يعرف الجزء الذي دفنته حيًا، ومضيتُ دون النظر إلى

الوراء، هذا الجزء البشع، الذي يمنعني من اقتحام صمت زوجي.. كيلا ينبش ماضيّ.. فلا شيء هناك غير جثة، تحتاج أن يحللها الوقت.. أن يفنيها.. أليس الوقت خير دواء؟.

– ربما لي الحق أن أعلم أخبارك منك مباشرة، لا مكتوبة على الورق.. لكل الناس...

أعاد الفنجان إلى الطاولة بصوت مسموع.. رفع رأسه وقابل عينيّ، إيهاب رجل هادئ، عندما يفقد هدوءه.. يشتعل الفحم في عينيه.. تصبحان كجمرتين في الجحيم.. علمتُ أن خروج الكلمات التالية يُحرقه ..

–ذلك أمر لا يخصُ الشركة، لقد سجلت خروجها من الفندق وغادرت.. مددت بقاءها بقرار خاص.. منذ ثلاثة أيام فقدت عائلتها كل اتصال معها.. وهكذا طلبوا المُساعدة.. الأمر لا يخص الشركة أو أنا.. وحتمًا لا يخصك.

ارتفعت شدة صوته باطّراد.. نظرت ناحية غرفة غنى.. ثم عدت أنظر نحوه وأنا أهمس..

-أخفض صوتك.. غنى نائمة ستخيفها..

همس وهو يهز رأسه غير مُصدّق..

-أنت مُستحيلة..

-دُنيا شخص.. إنسان.. كيف يمكن أن تتعامل مع أمر فقدها بهذا البرود؟

-الأمر لا يتعلق بي.. ولا بك.. ولا شيء يمكن فعله..

-لأنك لا تُريد أن تبذل فعلًا فقط..

زفر بغضب، نهض وابتعد نحو الحمام..

صمت.. المزيد من الصمت.. حملت الجريدة.. نظرتُ لصورة دُنيا مجددًا.. تذكرت لقاءنا الأخير في حفل الشركة.. ثم سمعت غنى تُنادي.. رميت الجريدة وأسرعت نحو غرفة صغيرتي، وعندما عدت رأيتُها مُكورة ومُلقاة في القمامة ..

الوقت الحاضر..

بعد ذلك الصباح لم نتحدث عن الفتاة المفقودة.. أعادني صوت إغلاق باب السيارة بعد صعود وعدٍ إليها إلى الحاضر..

-هل أنت بخير سيدة ملاذ؟

نظرتُ نحوها عبر مرآة السيّارة، فجأة بات جواب هذا السؤال بالذات صعبًا جدًا. لويت شفتي بما بدا كابتسامة.. وانطلقت، لمحت تمام واقفًا بجوار العمود.. مزيج من العصيان الذي منحته إياه أمه فلسطين.. وغموض تاريخه المضطرب الذي ورثه عن أب حمصي... نظارتين تغطيان بقايا مجون سنوات غربته في فرنسا حيث درس الهندسة.. و..

-انتبهي..

دست المكابح دون تفكير وأنا أحول نظري للأمام في اللحظة الأخيرة فأتفادى اصطدامًا مؤكدًا بسيارة واقفة.. أخذت طفلتي تبكي بجواري..فككت الحزام وضممتها إليّ، تلفتّ حولي.. لقد اختفى، كان يجب أن أدهسه بالسيارة وأنتهي..

-أنا آسفة. لقد شرد ذهني..

-من هو ذاك الرجل؟

نظرتُ نحو وعد بعينين متسعتين.. لقد رأته.. وها هي، وللمرة الأولى تسألني سؤالًا شخصيًا.. أعدت طفلتي لمقعدها..

-لا أعلم.

عدت للخلف.. ثم انطلقت مجددًا.. وأحاطت بنا نسماتُ الربيع.. رمقت غنى بسرعة، كانت شفتها السفلى مقلوبة.. ودموع تعلقت بأطراف رموشها الطويلة ..الجميع يقول بأنها تُشبهني بشكل كامل.. كأنها ابنتي وحدي، بالتأكيد إيهاب أيضًا يظن ذلك مُعظم الوقت.. وجسدي المغطى بآثار الحقن التي أخذتها وذاكرتي التي تحتل أسماء الأدوية التي تناولتها كعلاج لحدوث الحمل لا يمانعان ذلك الظن.. انتظرت قدوم غنى طويلًا.. بألم ممزوج بأمل ..وخيبة كل شهر.. حتى جاء ذلك الشهر.. عندما تشبثت البيضة المُلقحة بجدار الرحم.. الحمل كان ولادة جديدة.. خططت لها.. عملت لأجلها وتقت لها، صبرت على الآثار الجانبية لتحقيق الحلم.. حتى ضممتها بين ذراعي..

واكتملتُ ..

يقع صالون التجميل قريبًا من البيت، بقي أربع ساعات ليبدأ الحفل.. جلست على كرسي المُصففة قبالة المرآة.. جلست وعد بجانبي وكذلك جلست غنى إلى الجانب الآخر.. تحدٍ يبدو الجلوس أمام انعكاسي اليوم.. يكفي أن أنظر في عيني حتى تبحر روحي برحلة تخصها.. قطعت نغمة التنبيه في هاتفي الجمود.. فتحت الهاتف.. رسالة نصية من إيهاب.. أكّد الحجز للسفر في بداية الشهر المقبل.. نظرتُ نحو تاريخ اليوم.. بقي ثلاثة أيام للسفر ..لستُ جاهزة.. البارحة كنت جاهزة، لكنني اليوم ما عدت جاهزة لأي شيء.

أي خطر هذا؟

أعرف عن تمام ما يكفي لأدرك أنه لا يقول ما لا يعنيه..

°°°

وليست الحياة بعدد السنين ولكنها بعدد المشاعر ... لأن الحياة ليست شيئا آخر غير شعور الإنسان بالحياة ".

سيد قطب

عام 2003

التقيتُ تمام في ليلة مُختلطة الملامح، بدا مطر تلك السنة كأنه لا ينتهي.. بقيت السماء تُمطرُ حتى بداية شهر آب! كان أمراً مُذهلًا.. المشي تحت المطر في شوارع بيروت دون الخوف من الإصابة بذات الرئة.. حثثت الخُطى نحو السفارة البرازيلية حيث تنتظرني أمي- الكاتبة اللبنانية التي عاشت لسنوات في البرازيل- لكن قلبي بقي في دمشق مع أبي.. مذ طلاقه من أمي ويبدو عليه التعب.. لا يزال يُحبها.. لكنها نسيت حبه تمامًا.. والدي-الأديب المقاوم- لم يكتب كلمة مذ تركته.. أما أنا؟ أكتب تحت اسم مستعار، خوفًا مم سيجره عليّ اسم عائلتي من افتراضات مُسبقة.. فلست نسويّة متمردة ترتدي شعرًا مُستعارًا كنوع من الالتفاف حول موضوع الحجاب كأمي.. ولست أنتمي لأدب المقاومة كأبي.. ولا أعرف بعد لأي شيء أنتمي.. لم أكن ماهرة بالانتماء.. حتى قابلتُ تمام ..

ألفيت أمي لدى الباب.. كيف استطاع جسدها الثائر.. ورأسها السافر أن يستكينا لسلطة الحجاب الأسود والعباءة السوداء خلال عيشها في

السعودية بعد زواجها؟ لن أعلم.. هل تحب عبد الله –زوجها الثاني– كما كانت تحب أبي؟ لن أعلم.. وكيف مات الحب بين والديّ أصلاً.. لن أعلم كذلك..

كل ما أعلمه أن بوصلتي فقدت استقرارها مذ افترقا، أعلم بأني وكلما تحسست إبرة البوصلة وجدتها تهتز على غير هدى.. ولولا روتين الحياة والأمور المرسومة والجاهزة، ولولا وجود أشخاص مسلّم بوجودهم لكنت تائهة الآن في منتصف مُحيط ما.. مستلقية على شبه خشبة وقد فقدتُ قاربي وقد كسرت رياح انفصال والديّ أشرعتي، ضممت أمي بسرعة ثم ابتعدتُ.. كم يختلف ملمس عناقها عن ملمس عناق أبي.. أي العناقين ألذّ؟ لا أدري، لكنهما ولو تركت لقلبي الفرصة فقد أدمنهما.. أحس بكل تشتت الآمال ينمحي بين ذراعيهما، أحس بقلبهم يشحن قلبي بقوة لا يمكن قياسها، لكنهما ما عاد مُسلّم بوجودهما.. أمي بدأت حياةً جديدة.. وأبي غارق في رثاء حياة قديمة، وأنا طُحنت حياتي بين حجري رحاهما.

– ..جيد، لقد ارتديت الثوب الذي اشتريته لك .

هل كانت تشك بأني لن أفعل؟ ففي النهاية لا زلت أشعر أمامها كفتاة الخامسة عشرة التي تركتها أمها مع والدها ورحلت، تلك الفتاة لا زالت تود أن تعرف بأي ذنبٍ هُجرت

- ..شكرًا ماما، إنه جميل ..

عيناها كانتا تلمعان كنجوم الليل.. بينما عادت لارتداء الشعر المُستعار، كانت تخلع غطاء الرأس فور وصولها مطار بيروت، تخجل من أن تدينها عيون المدينة.. تنعتها بأنها رغم كل الثورة بداخلها قد خضعت للقوانين.. كأنها تخونُ ميلها للعلمانية.. تكره سُلطة رجال الدين، فتلتف على الحجاب، هي لا تود أن تفتنهم، لكنها تحاربهم بسلاحهم.. الرُخصة.. فاتخذت رخصة لنفسها، فرجال الدين برأيها يكيلون الرخص لرجال مثلهم، هم جعلوا دينهم رخيصًا.. دين الرجال صار، أما الإسلام الحقيقي كان بريئًا من تلك الرخص، كانت تبقى على مسافة منه، تخشى أن يُشعرها بالأمان.. تخشى أن تشتاق لخوفها وشكّها .. دخلنا عبر الباب وتم تفتيش أمتعتنا لدواعٍ أمنية في بلد صغير لم يعرف يوماً معنى الاستقرار، وصلنا قاعة الحفل.. بعيدًا لمحت الكُتب التي

ستوقعها أمي كجزء من الحفل، والتي سيذهب ريعها لمُساعدة وفود اللاجئين العراقيين الّذين أخذوا ينتشرون في كل مكان هربًا من نار الحرب التي أحرقت بلادهم.. أحرقت السُنّة والشيعة على حدٍ سواء.. فهل ترانا العين الأميركية التي تُعميها النجوم سوى حفنة مسلمين إرهابيين لا يُؤبه لهم؟

حملت كتاب أمي.. كتبتهُ قبل سبعة أعوام، قبل الطّلاق.. وصلت لِقمّة نُضجها الأدبي تلك السنة.. كان كتابًا ناجحًا نال الثناء الذي يستحق، وفاز بالجوائز.. ولكن ذلك أصاب أمي بالحزن.. لم تكن يومًا أكثر حزنًا.. سمعتها تصرخ في وجه أبي قائلة خلال أحد شجاراتهما التي تكاثرت بشدة قبل الفراق:

– لقد أفرغت كل ما أملكه بين دفتي الكتاب، أصبحت خاوية، بداخلي غرفة بيضاء تصيبني بالجنون، لن أكتب بعد اليوم حرفًا واحدًا فكفّ عن النظر إلي بهذه الطريقة.

– ..أي طريقة؟

-بأنني مجنونة تنحدر عن قمة المجد بعد أن بلغتهُ.. لقد رأيت المنظر من القمة إنه مُقفر، هل يجب أن أتربع فوق كتمثال؟ إني أكره هذه الضجة كلها.. أكره ضغط الكلمات ..

ألهذا رحلت؟ هل تلوم والدي على نجاحها؟ أم أنها كرهت الأضواء؟

قرأت الإهداء، رغم أني أحفظه غيبًا" ..إلى باسم.. منارة السفن التي حملت كلماتي من بحر المجهول "أهدته لأبي.. ثم صار هدية وداع ..

تلفتُّ حولي.. غمرني الحُزن المُتراكم بداخلي على مدى عدة سنين.. خلال مراهقتي كنت أظن حياتنا غير مستقرة، وأحس بالإهمال، ولكن بعد طلاق أهلي علمت أني نُفيت من الجنة.. حياتي مبتورة الطرف هذه تبدو كالجحيم.. كانت أمي تُحادث رجلًا متوسط الطول.. قوي البنية.. رأيت جانب وجهه المُبتسم لها.. في تلك اللحظة نظرا إلي.. وأمي تُشير نحوي.. هل ستقدمني الآن لغريب بينما أحسّ بأني أتأرجح على حافّة البكاء.. رأى الغريب ارتباكي، أشاح وجهه فقمت باستغلال فرصة مرور مجموعة من الأشخاص بيننا حتى أبتعد.. مشيت بسرعة.. خرجت من القاعة أكافح دموعي.. تذكرت أبي، ما كان يجب أن

أتركه.. إنه مريض وسيشتاق إلي وهو وحيد كملك فائز على رقعة شطرنج بعد معركة ماتت فيها كل الحجارة ما عداه.. بينما أمي هنا.. تبدو سعيدة.. خرجت إلى الطريق.. أخذت الدموع تنهمر وقد أحاطت بي ظلمة الليل الحالكة..فأخذت طريقًا جانبيًا ابتغي به عزلًة أكبر.. غير عابئةٍ بعيون ذئاب بشرية تسكن تلك الظلمة.. حتى أحسست بخطى تتبعني.. فحانت مني التفاتة للوراء.. رأيت شبحين أسودين عملاقين يلحقان بي.. وربما ظلال الليل موّهت أشكالهما.. وربما كانا مجرد شياطين أطلقها الحزن من داخلي.. وأخذت أعدو دون أن يساعدني كعب الحذاء العالي على ذلك.. وتفاعل الرعب والألم مع الحزن بداخلي ليكونوا مزيجًا في معدتي جعلني أحسّ بالغثيان دون أن أمتلك القدرة على الاستسلام.. حياتي كُلها تبدو هكذا الآن.. لم أمانع سقوط الحذاء من قدمي.. حثثت الخطا وزادت سرعتي بينما أوساخ الطريق تحفر في قدمي جروحها كلما دستها.. ثم أحسست بقطعة زجاج مكسور تخترقني من أسفل قدمي إلى قلبي تمامًا.. أخذت أصرخ بصوتٍ عالٍ، لدي عذر لذلك.. أحتاج أن يراني أحد.. أحتاج للمساعدة.. حتى

وصلت للنهاية المسدودة.. أخذت أتلمس الحائط.. ثم استدرت لأواجه الشبحين.. كطريدة مجروحة في حضرة صيّاد شره للدم.. لكن هذه الطريدة لن تمضي دون قتال.. رفعت قبضتين مرتجفتين.. أمام عينين دامعتين اقتربا أكثر واندفعت نحو الحائط وأنا أتمنى لو كنت حجرًا من حجارته.. رفع أحدهما يده ليصفعني وحاولت مقاومة صفعته فعاجلني بضربة على بطني فتكوّرتُ على نفسي من الألم.. كنت سأسقط نحو الأرض قبل أن يشدني صوت غاضب للقيام.. نظرتُ نحو الصوت بينما أخذ الخيالان يتراجعان.. يهربان بسرعة قبل أن يصل الرجل إليهما

- ..هل أنت بخير؟

جلست أرضًا وأنا ارتجف.. أحيط بطني بيدي.. أحس بسائل دافئ يخرج من جانب فمي.. وأبكي كطفل صغير ..لا لست بخير ولكن حادثة اليوم ليست السبب الوحيد لذلك.. بل رُبما ليست سوى القشة التي قصمت ظهر البعير

- ..مايا.. لقد وجدُتها.. نحن هنا ..

أمي؟ رفعت رأسي.. رأيت أمي تقترب راكضة.. نظرتُ نحوه.. حاولت أن أقف.. شهقت من ألم الجروح في قدمي الحافيتين.. مدّ يدهُ بفردتيّ حذائي اللتين باتتا معطوبتين وقد تقطّع رباط إحداهما وانكسر كعب الثانية.. لم أعد لارتداء الكعب العالي بعد ذلك اليوم.. ضمتني أمي بين ذراعيها.. وهذه المرة لم أسرع لتركها.. بقيت هناك حتى ارتويت.. وللحظات هجرني ألم بطني وقدمي.. تحسست أمي وجهي

– ..أنت تنزفين

– ..لا تقلقي ..

حاولت ارتداء حذائي.. الزجاج في جروحي جعل الأمر مستحيلًا

– ..سأحملك

..قال الرجل.. نظرت في وجهه.. الظلام جعل سبر أغواره مستحيلًا..

– لا.. أحتاج لإخراج قطعة الزجاج من قدمي وحسب ..

باءت محاولاتي بالفشل وأمي كانت تخشى منظر الدماء.. ركع بجانبي..

– لا تنظري للجرح انظري بعيدًا ..

فلم نظرتُ في عينيه؟ لم أر لونها.. هالة رجولته أحاطت بي، أحسست بأمان.. سحب القطعة بحركة واحدة.. خفق قلبي بألم انسحاب نصل سكين مغروز منهُ.. شهقت بحدة.. ولثانية نظر نحو شفتي.. حوّل نظره لأسفل وألبسني الحذاء.. لكن ذلك لم يجعلني أميرته.. بل لفترة طويلة صرت كعبدة بين يديه.. الحب استعباد

-عزيزتي.. هذا تمام سمعان..

الرجل الذي سيضرب قلبي بمطرقة بعد أن يصهره مراتٍ ومرّات

ooo

الحاضر

-ماما ..

صوت غنى انتشلني من دوّامة ماضٍ بعيد.. لكن شعور النكز بقي يحفر في أسفل قدمي.. حملت ابنتي وضممتها بين ذراعي ريثما تُنهي المصففة ترتيب شعري.. أخذت أتحدث مع فتاتي الصغيرة في كل شيء.. تواجهك حقيقة جهلك بالكثير من الأشياء عندما تقضي وقتك مع طفل يسألك مئة سؤال خلال النهار وأكثر.. يدفعك لتقرأ أكثر، يدفعك لتعرف أكثر.. فضوله يشعل فتيل فضولك.. فتصبح شخصًا أفضل .. خرجنا من الصالون قبل ساعة من موعد الحفل، اتجهتُ نحو المنزل لنبدل ثيابنا، وجدت صندوقًا ينتظرني أمام البيت، وقفت أنظر إليه بارتياب.. وقفت وعد وغنى خلفي.. وضعتُ يدًا على كتف ابنتي.. رأيتها تندفع راكضة نحو الصندوق لتفتحه..

- غنى.. لا تفعلي ..

اندفعت خلفها.. متأخرة.. رفعت الغطاء ونظرت نحو الداخل وضحكت.. نظرتُ من فوق رأسها.. المرآة.. أحسست بوعد تقترب.. رأيت رسالة مكتوبة.. عدتُ وأغلقت الصندوق

- ..هل كل شيء بخير؟

كانت وعد تنظر نحو الصندوق بفضول.. فضولها بدأ يضايقني

- ..هل لك أن تُدخلي غنى وتساعديها لتبدل ثيابها ريثما أجهّز نفسي؟

نظرت في عيني للحظة.. لمحتُ تحدٍ في عينيها.. هذا سلوك جديد كذلك.. أم أنني أعاني عقدة ارتياب ناتجة عن أسرار ماضيّ؟ ثم ابتسمت وأومأت بنعم وجرّت غنى نحو غرفتها بينما عيناها متعلقتان بالصندوق.. حملته وعدت ونزلت لأرميه في حاوية النفايات.. ثم أخرجت الرسالة وتخلصت من الصندوق وسمعت صوت تهشم المرآة داخله.. يجب أن أمزّق الورقة لكن صوتًا همس بي.. أبقِ صديقك قريبًا وعدوكَ.. وهكذا فتحت الورقة.. (سمعتُ المرآة تئن، حنينًا ربُما.. وتعلمين أن الحنين سجن.. فبعثتها لكِ لأُحررها.. يُمكن للإنسان أن يمنح ما يفتقده.. مُلاحظة: كسر المرآة إطلاق لكل الأرواح التي

تسكُنها.. هكذا تقول الأسطورة.. وهكذا ستُلاحقك أرواحُ الماضي التي تنكرين) مزقتُ الورقة لقطع صغيرة ونثرتها فوق الكسر في المرآة، ما الذي تنويه يا تمام؟

بدلتُ ثيابي بذهن غائب.. أصبح الفُستان الزيتي الذي كنتُ مُتحمسة لارتدائه مثار إحباط.. يُمكن لحجر صغير أن يُعكر صفو هدوء بركة ماء بأكملها.. حملتُ حقيبتي وعزمت الخروج من الغرفة وفي تلك اللحظة دخل إيهاب..

-حسبتنا سنلتقي في الحفل.. (قُلتُ مُجفلة)

-لقد نسيت أمرًا هامًا..

دخل إلى مكتبه.. غاب لعدة دقائق.. وقفت وعد وغنى بالباب.. بدت فتاتي كملاك صغير.. رميتُ الحقيبة نحو السرير بلا اهتمام.. وفتحت ذراعاي فركضت ورفعتها بينهما.. تنشّقتُ رائحتها.. كعبق الجنة.. خرج إيهاب ونظر نحونا بذهن غائب.. ثم مسح شعره القصير بيديه وقال:

-لننطلق..

سرنا نحو الباب.. ماذا دهاني.. نسيت الحقيبة.. توقفتُ وقلت:

-اسبقوني.. سأحضر الحقيبة وأتبعكم..

خرجوا معًا.. ونبض الخوف بي إذ بقيتُ وحدي مع كل الأشباح التي حذرني منها تمام.. اتجهتُ بسرعة نحو الغرفة وحملتُ الحقيبة.. سمعتُ صوت اهتزاز قادمٍ من جهة المكتب.. هل نسي إيهاب هاتفهُ المحمول؟ استمر الصوت.. سرت ببطء نحو باب المكتب.. وأرهفت السمع.. دخلت الغرفة التي يسيطر عليها لون الخشب الماهوغاني الغامق.. أحسست بصفوف الكتب تحدق نحوي كما لو كنت مُتطفلة.. الصوت يصدر عن المكتب.. لكني لم أر شيئًا.. حاولتُ فتح الأدراج الجانبية.. العلوي مُقفل.. والدرجان السفليان لم أر فيهما أي أثر للهاتف.. عاد الصوت.. أيًا كان المُتصل فهو يبدو مُصممًا على مُحادثة إيهاب.. فتحت الدرج الأساسي.. لم أر شيئًا.. لكنني أحسستُ بالاهتزاز.. إنه صادر عن هذا الدُرج بلا شك.. تلمّستُ الخشب.. نقرتُ عليه بخفة.. كأن الأرضية مُزيفة.. كيف لم أنتبه لهذا من قبل؟ سمعتُ نفير السيارة.. يجب أن أسرع بالخروج.. ثم أحسستُ باهتزاز أخير.. قبل أن يختفي

الصوت.. نفير السيارة مرة أخرى.. تركت الدُرج وأسرعت في الخروج من المنزل، حل الغضب محل الخوف، نزلت الدرجات مُسرعة.. لحظة شكٍ واحدة قد تكون عود ثقاب يضرم نار تلتهم يقينك بأكمله.. ما الذي تخفيه عني يا زوجي العزيز؟ جلست في المقعد بجواره

– ..هل يمكنني استعارة هاتفك؟ زوجة كمال طلبت أن أخبرها بموعد خروجنا من المنزل، وشحن بطارية هاتفي نفذت ..

عندما سلّمني الهاتف كحلي اللون اشتعل خداي حنقًا.. فتحت النافذة.. أغرتني نفسي لأرمي دليل إدانته على جرم لا أعلم ما هو بعد.. سكن صوت الاهتزاز أذناي.. أحسست بجسدي يرتجف.. مساعدة مفقودة.. هاتف سري.. عدوٌ من الماضي يترصد بي.. متى بدأت حياتي تداعى؟

°°°

وصلنا الفندق حيث سيقام الحفل.. حملتُ ابنتي بين ذراعي كيّلا أمسك يد زوجي.. أشعر نحوه بغيظ بالغ.. حملت وعد حقيبة الطفلة

وحقيبتي.. دخلنا عبر الباب الرئيسي تعلو وجهنا سحنة الجمود.. يفقد الحاضر حلاوته عندما نفكر بمرارة المستقبل التي نتوقع أن نذوقها.. وجدت زوجة كمال واقفة أمام مكتب الاستقبال وقد ظهر انتفاخ صغير في بطنها.. إنها حامل منذ أربعة أشهر.. إن جنينها هو جنين شهر العسل.. اقتربنا منها وزوجها الذي يبدو متململًا.. وضعت ابنتي أرضًا لتقف وعانقت الشابة المتوهجة فخرًا بما تحمل.. لا يمكن أن نتساوى والرجال.. فهبة الحياة اختصاصنا.. نحن اللواتي نحمل داخلنا الحياة.. نحن الحياة.. كنت ممتنة لوجودي مع أشخاص آخرين، ممتنة لفرصة الراحة من التفكير فيم يجب أن أقول، فيم يجب أن أفكر فيه.. وفيم يجب أن أفعله..

. جلس الجمع، كلٌ في مكانه المخصص، كانت طاولتنا في الصف الثالث أمام منصة العرض.. كانت زوجة كمال عن يميني وغنى عن يساري.. من جهة القلب، بدأ المزاد العلني -الذي تذهب أرباحه لجمعية رعاية الأيتام والمشردين- مباشرة بعد أن ساد الهدوء.. بدأ المزاد برحلة لشخصين إلى لندن لمدة ثلاث أيام.. كانت مدينة الضباب وجهة

لمن يريدون السفر لأول مرة.. لكن في هذه القاعة لا توجد هذه الفئة.. الطبقة المخملية.. حيث يمتلك الإنسان الكثير من المنازل والسيارات والأشياء المادية.. ويسافر سائحًا على الدوام، لكنه يفتقد ما دون ذلك.. حسبت أسرتي الصغيرة مختلفة.. لكنها ربما ليست كذلك.. حُسم أمر الرحلة لصالح مالك دار نشر كتب، بالطبع سيستخدمها للسفر مع عشيقته السرّية.. والتالي في قائمة المزاد كان قاربًا سياحيًا بطول خمسة عشر مترًا.. أخذت الأصوات تزدحم.. والمزايدات ترتفع بشكل جدي، من الممتع أن تحصل على شيء يطلبه كثيرون.. أن تخطفه من أمامهم.. لا أحد يحب صفقة سهلة ..تتابعت المعروضات.. وتتابعت الأرقام لحدود خيالية.. ربما لو وصل إحسان هؤلاء الناس كلهم لأيدي من يحتاجه فسوف يختفي المتشردون من الشارع.. ربما ستصلهم أذن الجمل فقط.. ثم وصل المزاد لنهايته.. آخر المعروضات كان لؤلؤة زرقاء.. جارية ابن رامين.. أخذ قلبي يخفق لذكرها.. كيف وصلت الحفل؟ ألهذا حضر تمام إلى سوريا؟ ليظهر روح الخير في داخله؟ بعد أن أعلن المُضيف عن اللؤلؤة علا صوت شهقة جماعية من الحضور

لرؤيتها.. كانت كبيرة الحجم ..برّاقة.. رغم أنها من القدم بمكان.. منذ أيام الجواري والعبيد.. إذا احتسبنا أن ذاك الزمان قد ولى لغير رجعة.. بدأ المزاد.. الأرقام التي كانت تُعلن كانت ضخمة، لكنها لم تصل للقيمة الحقيقية للّؤلؤة.. دام الأمر طويلًا.. وفاق المبلغ المعروض الثمن الفعلي لتلك الكرة البيضاء.. ثم بدأت الأصوات تنسحب.. بقي شخص واحد عرض مئات الملايين.. وبدا أن المزاد قد انتهى.. قبل أن ينطق صوتٌ في آخر الغرفة مضاعفًا المبلغ.. شهقت الجموع مجددًا.. نظروا نحو مصدر الصوت ما عداي.. نظرتُ أمامي متسعة العينين.. هل تخلى تمام وعائلته عن كنزهم ذاك؟ لمحتُ إيهاب ينظر نحوي.. قلتُ له بسرعة

- :أظن بأن الطعام فاسد.. لا أشعر أني بخير

- ..كلنا نأكل منه.. لا أحد تضرر ..

نظرتُ في عينيه بينما كان المضيف يقوم بالعد التنازلي... حسم المزاد .. وصفقت الجموع لذلك الغريب.. حولتُ نظري عن إيهاب ووقفت

- ..سأذهب للحمام ..

وقفت زوجة كمال:

- ..فكرة جيدة، الجنين يحسب مثانة أمه لعبة ..

ثم ضحكت لنكتتها.. جاملتها بابتسامة.. أخذت أمشي بسرعة أبغي الخروج من هناك.. ثم خففت سرعتي وقد كانت المرأة الصغيرة تلهث للحاق بي.. خرجنا من القاعة.. وتوجهنا نحو غرفة الاستراحة..

أغلقت الباب بينما أسرعت زوجة كمال في دخول دورة المياه، وقفت أمام مرآة المغاسل.. يجب أن أتماسك، فكل ما يجري لا معنى له.. تمام ماضٍ قد انتهى.. لقد تبت عنه.. أذكر ذاك اليوم جيدًا.

إذا شئتم أن تذوقوا أجمل لذائذ الدنيا، وأحلى أفراح القلوب، فجودوا بالحب وبالعواطف كما تجودون بالمال "

علي الطنطاوي

2003

اصطحبني تمام وأمي لمستشفى لتضميد جراح قدميّ، ولفترة طويلة لاحقة حسبته هو -تمام- سيتكفل بجراح قلبي وروحي، أنا الفتاة التي لا تلوم أحد على أي شيء يحدث لها أيًا كان المسبب، أنا الفتاة التي لا تضرب جذورها عميقًا في أي مكان تحملها الريح سفنها إليه، أنا - الفتاة التي اختار لها والداها اسم ملاذ- لجأتُ لأحد آخر أتخذه ملاذًا لي ..بقي معنا حتى خرجنا من المستشفى، ثم اصطحبنا إلى (الفيلا) حيثُ يقيم، كان ينظر نحوي بطريقة غريبة.. جريئة، كأنه النظر إلي حقٌ يمتلكه هو، لم ننم تلك الليلة، كنت أتألم.. وخليط المسكنات في عروقي لم يفعل شيئا سوى جعلي أحسُ بأن الألم تفرّق في كياني كله.. وما عاد في نقطة محددة، كأنها تدفعني لأسأل نفسي: هل كنت أتألم حقًا؟ دون أن تمنحني الجواب .عندما دخلنا كانت الساعة الرابعة صباحًا، غرفة الجلوس كانت مبهرة.. الجدران مغطاة برسوم طبيعية بينما تنتشر نباتات الزينة الورقية الخضراء في كل مكان ويُكمّل منظر سماء الليل عبر الواجهة الزجاجية جمال كل شيء.. عرجتُ على قدمي المُصابة حتى

وصلت الكنبة، بينما جعل نظره نحوي المشي أمرًا أكثر صعوبة.. كأنني أمشي لأول مرة في حياتي، أخذت أنظرُ نحو الخارج بينما أمي تحادث تمام.. وكلماتهم تصلني عبر غمامة شكّلتها العقاقير حول وعيي بضبابية.. ثم غابت الأصوات عندما نهض بعد قليل وخرج من الغرفة.. كان يرتدي ثيابًا سوداء كفهد أفريقي.. وشعره يتهادى متموجا كلّما تحرّك.. قلت لأمي- :لم قلت اسمه بطريقة توحي بأني يجب أن أعرف من يكون؟

أجابتني ضاحكة:

-بالفعل.. أحسب اسمه ورد في محادثاتنا، فقد التقيته ووالدك مُذ عُدنا من البرازيل.. نعتبره صديقًا مُقربًا.

رددتُ ببطء: -لا يبدو بعمر يؤهله ليكون صديقًا لكما معًا..

وقفت وسارت نحو النافذة ثم عادت تنظر إلي: -كما أنه شاعر معروف..

عُدتُ أفكر باسمه.. تمام سمعان.. كنتُ أميل لأدب أميركا اللاتينية، ميلي ذاك هو أحد الأعراض الجانبية للحنين الذي يراودني نحو حياتي

القديمة عندما دخل تمام الغرفة مجددًا سألته أمي عن الهاتف لتجري اتصالاً، فدلها على غرفة المكتب المجاورة.. ساد صمتٌ كامل بعد خروجها.. لم أكترث حتى لكسره، وضع أمامي كوبًا من العصير بلون أحمر فاقع.. وجلس على الكنبة المُقابلة.. أخذ ينظر إلي.. جعل الصمت نظراته تلك أثقل وطأة على أعصابي التي أحاطت بها المُسكنات فأصبحت مُتوترة بشدة..

قال بصوت عميق: -هل تعرفين فنون القتال؟

هل يبدو صوته عميقًا فعلًا؟ كنت قد قرأت عن الصوت العميق، لكنها المرة الأولى التي أحس بأن هذه الصفة قد خُلقت لصوت تمام.. رغم أني سمعته يُحادث أمي.. هل بدا صوته بهذا الشكل؟ كأنني أرى الصوت.. لا أسمعه فقط.. عميقًا.. أجشًا.. وفي غمرة أفكاري لم أرد على سؤاله.. لم أفهم سؤاله أصلًا.. كأنه خرج من العدم.. حتى أكمل:

-رأيتك ترفعين قبضتيك في وجه الرجلين.. بدوتِ كأنك ستلكمينهما..

حركتُ رأسي ب (لا) وقلتُ ببطء غير مُتعمد:

-كانت غريزة رُبما، أو فعل يأس.. (صمتُ) واكتفيت بمبادلته النظرات، حاجباه كجناحي طائر أسطوري.. فضولها مُحرق: -لم تنظرُ نحوي هكذا؟

التوى جانب فمه بابتسامة.. أطلق ضحكة من بين أنفاسه: -تُذكرينني بالقُبلة الدرية..

-لم أفهم.. كيف يمكن لإنسان أن يُشبه قُبلة؟

-هذه القُبلة التي بدا كأن لؤلؤة تكونت في فم الجارية التي تُدعى زرقاء بعد أن قبلها يزيد بن عون الصيرفي، قُبلتها الأولى والوحيدة رُبما.. ثم دفع حياته ثمنًا لتلك القُبلة لاحقًا..

-رُبما يجب أن تخبرني بالمزيد..

-كانت زرقاء جارية عند جعفر بن سليمان، تُتقن العزف والغناء لم ينل أحدٌ منها قبلةَ سوى يزيد، عندما قبلها قذف اللؤلؤة في فمها فأبقت فمها مُطبقًا حول تلك اللؤلؤة لفترة طويلة حتى تحصل على ثمن مُناسب لها.

-باعتها؟

أومأ بنعم، فقلتُ: ذلك ثمن مُرتفع لقُبلة..

ردّ: -لا.. بدا صوتُه قاطِعًا كأني قُلتُ شيئًا يُخالف عقيدته كلها..

أكمل: -لقد دفع حياته ثمنًا لتلك القُبلة.. بينما كان جعفر يضربه بالسوط لم ينطق آهة ألم واحدة.. ذكرى تلك القُبلة خففت عنه كل الألم..

-وذلك أيضًا ثمنٌ مُرتفع.. كررتُ.. لم أهدف لجداله.. كُنت مُرتبكة فحسب

قال: -عندما سألها جعفر إن كان أحدٌ ما نال وصالها، فأخبرته عن القُبلة الدرية..

-هذه قُبلة سامّة بالفعل..

-كانت قُبلة تستحق أن يموت المرء لأجلها..

تلا تصريحه ذاك صمتٌ غير مفهوم.. وأكمل: -لذلك باعت اللؤلؤة بثمن مُرتفع.. واشترت عتقها.. للحُرية ثمن مُرتفع، بلون الدم غالبًا..

نهض واقترب من الخزانة بجوار الحائط، بها تُحف معروضة.. فتح القفل وأخرج صندوقًا زجاجيًا صغيرًا وعاد ووضعه على الطاولة

أمامي.. كانت وسادة سوداء صغيرة داخل الصندوق تتوسطها.. لؤلؤة.. كانت بحجم كرة العين..

-هذه هي..

نظرتُ نحوها بانشداه.. بدا لونها غريبًا.. ليس لامعًا.. ليس باهتًا.. جذب نظري بشدة.. أم أنني انجذبت أكثر نحوها وقد علمت القصة وراءها؟ فكل شيء يمتلك قيمة إضافية، بقد ما يمتلك من القصص التي تروي مغامراته.. لحظات شجاعته.. وجنونه..

-إن امتزاج ريقي الحبيبين عند القُبلة أنتج طبقة حفظت اللؤلؤة لزمن طويل، هذا ما جعلها نادرة، لونها الفريد.. لون الحُب. نُدرته.. قيمته التي تزيد مع مرور الأيام..

-لكنه ككل شيء.. له ثمن.. (نظر في عيني بتحدٍ خفي لم أفهمه.. إنه مُحق.. كنت أقاوم مدًا لا أفهم كنهه، وأكملت) ارتباط أي شيء بالخرافات يجعله نادرًا..

فتح فمه ليرد، دخلت أمي في تلك اللحظة، وبقي الكلامُ مُعلّقًا..

-ملاذ؟

الحاضر

– ..ملاذ

كنت غارقة في ذكريات ماضيّ ولم ألحظ خروج زوجة كمال من دورة المياه، كانت تحدق في انعكاس عيني في المرآة

– ..لقد انتهيت.. سأعدّل لون شفتي فقط ..

ابتسمت بنعومة وأخذت تعدّل مكياجها ..بللت يدي ومسحت رقبتي من تحت ياقة فستاني هل ابتسمتُ يومًا بخلو بال كزوجة كمال؟ كنتُ أشعر بالذنب عندما أفكر بأي شكوى تخطر لي.. أعلم بأن حالي أفضل من كثيرين، وعندما أصل لهذه النقطة أوقف عقلي عن التفكير.. أوقفه عن اقتحام ذلك الصراع الطبقي، وأسير في درب الحياة الحاضرة.. درب ضيق.. لا تحيط به الأوهام.. ولا تثقله ذاكرة الماضي.. لكن الذكريات تُلحّ علي.. خرجنا من غرفة الاستراحة، وجدتُ عامل الفندق ينتظرني وهو يحمل مُغلفًا، قلّبته بين يديّ، إنه غير معلوم المصدر.. بدا عليه شعار الفندق.. قالت زوجة كمال بأنها ستسبقني بالعودة نحو القاعة.. شكرتُها لطفها وعدتُ أنظر نحو المغلف من

جديد.. رفعتُ رأسي لأسأل عامل الفندق عمنّ سلمه إياه.. لكنه ابتعد.. فتحته بحذر كأنني أزيح كبسولة أمان قنبلة ما.. قرأتُ (لا يتخلى مالك اللؤلؤة عنها إلا عندما يتخلى عن حياته.. فكل ثمن دون ذلك يبدو زهيدًا.. قيمة تلك اللؤلؤة قُبلة تختصر معاني الحياة وتُحرر الروح من سجن الجسد) كوّرت الورقة وعصرتها داخل يدي بشدة.. أبغي خنقها.. هذه القُبلة لن تُنهي مفعول السم الذي غمست به الساحرة الشريرة تفاحة الماضي، لن أكون ضحية تمام مرة ثانية فيها تبدو الأدوار قد عُكست.. فهذا الثُعبان في هيئة رجل يبث سمومه في أنحاء جنتي ليخرجني منها رأيت إيهاب يقترب مني مُقطّب الحاجبين فيم تُحرق الورقة باطن كفي الذي أقبضته بشدة عليها حتى جذبت نظر زوجي نحوها، هوى قلبي لأسفل، سألني:

لم تأخرتِ؟ إنهم يقدمون العشاء.

-لم تركت غنى وحدها؟ (باغتُه بصوتٍ كالفحيح خرج بهسيس من بين أسناني المُطبقة فتوترت شفتاه

-شعرتُ بالقلق عليكِ، لكن قلقي لا يُهم كما يبدو.. كلّ ما يعنيكِ هو تلك الفتاة.

زفرتُ أنفاسي فخرجت حارّة كما لو أن تنينًا صينيًا سكن صدري، أخذت يدي تؤلمني وقد توترت أعصاب جسدي بأكملها وهمستُ: لنعد فقط.

أمسك ذراعي فشددتُ يدي حول الورقة، نظر نحو يدي، بقيتُ أنظر في عينيه، نفض يده من ذراعي وقال حسنًا لنعد.

سار أمامي بخطواتِ واسعة، عُدت إلى غرفة الاستراحة بللتُ الورقة بالماء ونتفتها لنتف صغيرة ثم رميتها في سلّة المهملات.. وودت لو أرمي ذكريات الخزي كذلك.. هل أخبر إيهاب بكل شيء وأنتهي؟

-_-)_-)

بقيتُ أتقلب في فراشي طيلة الليل.. هل أخبر زوجي بما يحدث ليضع حدًا لذلك الشيطان؟ ولكن بعدها لمن سأخبر شكوكي التي تتعلق بإيهاب؟ بزوجي؟ الذي يبدو بأن حياة مُساعدته التي تعمل معه منذ

سنين لا تُهم.. الذي يخبأ عني هاتفًا احتياطيًا في درج مكتبه؟ الذي يتعامل مع ابنتنا كأنها مُنافس له لا قطعة من صُلبه؟

لم أجد أي إجابة.. حل الصباح، ولم أخرج للركض كيلا أصطدم بماضيّ ولم أطق المكوث دقيقة أخرى في فراشي وقد أحسست بأنني قطعة لحم تتقلب فوق مقلاة مُحمّاة على نار هادئة.. نهضتُ واتجهت نحو المطبخ.. لسعتني برودة الأرض فتيقّظت أعصابي وارتجف جسدي.. أوصلت آلة تحضير القهوة بالكهرباء وقررت أن أطبخ فطورًا ساخنًا كي أريح تفكيري من سيل الأسئلة ولو للحظات.. ربما يكون السفر إلى أمي قد جاء في الوقت المناسب، ربما هذا ما أحتاج إليه.. أن أبتعد، وربما ستوافق أمي لنسافر ثلاثتنا.. أنا وغني وهي إلى بلدٍ لا تحرقني به نار الذكريات.. حيث يمكنني أن أستعيد قليلًا من صفاء أفكاري، وأبذل محاولة أخرى للنسيان.. لكني بقيت أرزح تحت ثقل السؤال.. ما الذي جاء بتمام بعد كل هذه السنوات؟ ولم في هذا الوقت بالذات؟ يبدو كل ما يقوم به مقصودًا ومُخططًا له، اتجهتُ نحو النافذة وأغلقت الستائر

بسرعة.. كُنت أراقب تحركاته في يومٍ ما، اتبعه كظله.. لكن ذلك كان بدافع حبي الغبي، ولكن ما دافعه هو؟

حوالي الساعة السابعة سمعت صوت ارتطام على الباب.. لا بد أنه فتى توزيع الجرائد.. اتجهتُ نحو الباب وحملت الجريدة المطوية.. تنشقتُ عبقًا خفيفًا في الجو.. بقايا رائحة.. نظرتُ نحو الدرج.. كأن أحدهم كان هُنا.. هل هو فتى توزيع الجرائد فقط؟ ما شكله؟ عُدت أغلق الباب، أخذتُ أقلب صفحات الجريدة خلال سيري ببطء نحو المطبخ.. مظاهرات في تونس.. اضطرابات في ليبيا ومصر.. كيف ترك تمام ذلك كله وحضر إلى هُنا؟ لينشر الاضطراب في حياتي أنا.. تناولتُ قليلًا من فنجان القهوة.. مددّتُ الجريدة أمامي أشتاقُ لأمسك القلم وأكتب من جديد أحيانًا، تركتُ الكتابة بعد ولادة غنى، تفرّغتُ كُليًا للعناية بها، رُبما أصيبت أفكاري بالصدأ وقد هجرتها طويلًا.. كم كنتُ أجيد الصراخ على الورق.. كنت أجيد مُداهنة الكلمات لتصطف طائعة.. كنتُ أبارز بسيف الحروف لأقتل.. بعد انفصالي عن تمام كتبت مجموعة رسائل لأقتله بداخلي من خلالها، دفنت تلك الرسائل تحت

شجرة أرز في جبال لبنان وعُدت إلى سوريا، تزوجت إيهاب وكان ما كان، أذكرُ لقائي بإيهاب جيدًا، كأنه حدث البارحة، أخبرني صديق لوالدي في السفارة أن أعود مع إيهاب بسيارته بدل أن أعود وحدي، وهكذا التقيت به في صباح اليوم التالي، كانت دُنيا برفقته ذلك جعلني أطمأن لرفقتهم، ربما كنت غبية، ربما لا أزال غبية، لكنه كان مُرافقًا دمثًا ومُحدثًا بارعًا ، لم يتوقف عن تسليتي طيلة الطريق بينما التزمت مُساعدته صمت شبه مُطبق، بقينا بعدها قريبين لمدة أسبوع ونيف نلتقي كل يوم لحضور فعاليات ثقافية بصحبة أصدقاءه وصديقاته في دمشق.. كنت ممتنة له صحبته تلك، وقد شتت تفكيري عن تمام.. وكلماته التي قالها في آخر لقاء لنا..

حكى إيهاب قصة حياته في أول لقاء لنا، وبعد ستة أيام طلب يدي للزواج، لم أفكر طويلًا، بتُّ وحيدة دون أب، وأم بعيدة، بينما إيهاب يبدو مثاليًا، في الرابعة والثلاثين من عمره، مُدير فرع الشركة في سوريا، والداه فلسطينيان، بينما وُلِدَ هو في أميركا ويحمل جنسية أميركية، عادت عائلته للعيش في الأردن، لكنه عاد وسافر للولايات المُتحدة ليدرس

إدارة الأعمال في جامعة واشنطن، وهناك تزوج فتاةً أميركية مم أغضب والده وجعله ينفيه من العائلة قاطِعًا عن ابنه الضال الدعم المادي والمعنوي، مم اضطر إيهاب للعمل في محطة محروقات وترك الجامعة ليعيل نفسه وزوجته، لكن كريستين –زوجته– لم تحتمل شظف العيش في تلك الظروف، فهجرته.. عندما أعلم والده بذلك، عاد إلى الأردن ليتصالحا وعاد لحياته القديمة فعاد وسافر وأكمل دراسته، وبعد التخرج سافر إلى فلسطين لأول مرة كونه يحمل الجنسية الأميركية فالجنسية العربية لن تُمكنه من ذلك.. كنتُ أحسِده إمكانية دخوله لفلسطين.. ولذلك سافرت إلى أميركا لألد غنى، فلو استمر الوضع على حاله، فالجنسية الأميركية التي تُمنح بالولادة ستجعل حياتها أسهل بكثير، بعدها سافر إلى لبنان ليعمل في شركة تجارية أميركية هناك ويُصبح مُدير فرعها في بيروت خلال خمسة أعوام، التقيتُ به خلال تلك الفترة، عندما تم تعيينه كمدير عام لفرع شركته في دمشق، تزوجنا بعد أسبوعين من لقائنا، تزوج بسرعة واندم على مهل..

في السابعة والنصف استيقظ إيهاب.. دخل المطبخ ببطء.. شملني بنظرة عامة ثم توجه نحو آلة القهوة ليصب فنجانًا له..

-آسفة لما حدث البارحة.. أظن أنني شعرت بالبرد.. وآلمني بطني نتيجة ذلك..

حمل فنجانه وجلس بجانبي، أبعد الجريدة عني وأمسك بيدي وشابك أصابعنا معًا.. ثم نظر في عيني

-يمكنك أن تخبريني أي شيء.. لا مكان للأسرار بيننا..

تسابقت دقات قلبي.. أسرار.. وأكمل وهو يلامس جبهتي..

-ما الذي دار في رأسك طيلة الليل ولم يسمح لك بالنوم؟

أردت أن أخبره.. أردت ذلك بشدة.. لكني لم أعرف ما يكفي بعد.. لأفصح عما بداخلي.. لكنني جبنت.

-كان صباحًا باردًا.. وملابس الركض كانت خفيفة..

-ملاذ.. (ضغط على يدي أكثر وأحسست بالألم.. لكن ألم قلبي كان أكبر)

-ماما.. (كانت غنى تقف بالباب وهي تعرك عيناها لتبعد النوم عنهما)

ترك إيهاب يدي، فأخذت أحرّكها خفية تحت الطاولة.. أُعيد جريان الدماء إليها.. وقف واتجه ببطء نحو غنى التي كانت غافلة عم يحدث.. وقفتُ ببطء مُتحفزة.. حمل غنى بين ذراعيه وأخذت تمرر يدها الصغيرة على وجهه وهي تبتسم.. وضعها على طاولة المطبخ وأحضر وعاءًا سكب فيه رقائق الذرة المُلونة المُفضلة لدى غنى، ثم أحضر الحليب الدافئ وسكب منه القليل في الوعاء، ووضع ملعقة منه في فم غنى.. دمعت عيناي.. صليتُ طويلًا لأراهما مُتقاربان.. مسح الحليب الذي سال على ذقنها الصغيرة.. نظر نحوي بشكل جانبي.. رأى ذهولي.. ارتفع جانب فمه بابتسامة قبل أن ينسحب نحو غرفته.. إذا رأيت أنياب الليث بارزةً.. فلا تظنن أن الليث.. اقتربت من غنى وأكملت مهمة إطعامها.. نظرتُ نحو الفطور الذي حضّرته.. لقد فسد منذ مدة.. حملتُ القدر ورميته في حوض غسيل الأطباق.. وأغرقتهُ بالماء حتى امتلأ، أبصرتُ قطرة الماء الأخيرة تنزل ببطء فوق سطح الماء الساكن فاصطدمت به وتكونت الدوائر التي أخذت تتسع حتى فاضت عن حافة الحوض وأخذ الماء يتقاطر، ضحكت طفلتي وحسبت أمها

تلعب لعبة ما، فضممتها بين ذراعي سمعتُ صوت إغلاق الباب الخارجي، لقد خرج دون كلمة، أذكرُ فترة من الزمن كان يخرج زوجي خلالها من المنزل دون أن ينطق كلمة وداع واحدة، كان ذلك عندما فشلت محاولاتنا في الحمل، حتى دخلت نوبة اكتئاب حادّ، فأبكي كلما اقترب زوجي مني، حيث كنت أذكر خيبة كل شهر، عندما تزورني الدورة الشهرية كضيفِ ثقيل الظل، تحمل نبأ عدم حدوث الحمل، حتى حملني إيهاب على كتفه كرجل كهف بدائي ووضعني في المقعد الأمامي للسيارة وذهب بي للطبيب، حيث أخضعني لسلسلة اختبارات تبعها سلسلة علاج تبعها إلقاح صناعي تبعه انتظارٌ مر، تبع ذلك كله الخبر السعيد..

فما الذي يحصل الآن ليخرج زوجي من البيت دون كلمة؟

السفر بعد أيام معدودة، لا يمكن أن أترك الأمور بيننا تتدهور بسبب رجل عديم الأمانة يُعكر صفو حياة امرأة متزوجة، سمعتُ رنين الهاتف، حملتُ غنى بين ذراعي وذهبت لأرد، نظرتُ نحو كاشف رقم المتصل، لم أعرف لمن يعود، هل يمكن أن تبلغ بتمام الوقاحة لأن يتصل

لبيت رجل ويزعج زوجته؟ لم أرد، وهممتُ لأبتعد من جديد، وعاد الهاتف يرن، تبًا.. رفعتُ السمّاعة وقلتُ بصوتٍ غاضب :

=من معي؟

=أعتذر للإزعاج.. أتكلم من المكتب العقاري الذي يتعامل السيد إيهاب ماهر معه.

مكتب عقاري؟ =أهلا.. كيف أساعدك؟

=أنا أتصل بحضرتك كما أوصتني مُساعدة السيد إيهاب، الآنسة دُنيا في حال عدم إجابتها اتصالنا.

أجلستُ غنى على الكرسي بجوار الهاتف وأمسكتُ سمّاعة الهاتف بكلتي يدي، وضغطتها أكثر على أذني، قلتُ ببطء: =إنها غير متوفرة و.. قاطعني: =لقد حاولت الاتصال بالسيد إيهاب الليلة الماضية حوالي الساعة السابعة والنصف فلم يجب اتصالنا، وبعدها حاولنا الاتصال بالآنسة دُنيا والتي لم تُجب بدورها أيضًا، وكانت أخبرت مكتبنا لنتصل بهذا الرقم لو لم تُجب اتصالنا.

تنحنحت ببطء =نعم، أخبرتني أنها ستفعل (كذبت) فكيف أساعد ك؟

- إن المنزل الذي يستأجره السيد إيهاب غير صالح للسكن حاليًا، فقد حدثت مشاكل في السباكة، ولا يمكنه السكن فيه خلال الشهرين المقبلين كما يفعل كل سنة ..

استندت لطرف الطاولة

- .خلال الشهرين المقبلين.. تقصد الذي كان يستأجره خلال السنين الخمس الفائتة؟

-بالضبط، يبدو أنك تعلمين بالأمر، هذا جيد، فقد ترددت قبل أن أتصل بك، فالسيد إيهاب يعتبر هذا البيت سريًا نوعًا ما .

التهب خيالي بحرارة الغضب، كنت أخمن بثقة لا أعلم كنهها.. ورددت:

- أعلم بأمر البيت، وفي الحقيقة لدى.. السيد إيهاب عدة أرقام.. فأي رقم كنتم تتصلون به؟

أخبرني الرقم وسجلته بسرعة على دفتر الملاحظات الموجود بجوار الهاتف ..شكرته وأغلقت السماعة، صوت طنين يعلو في أذني كصفير إنذار بكارثة على وشك الحدوث، لم قد يستأجر إيهاب منزلًا آخر في

المدينة ليسكن فيه خلال فترة سفري كل عام؟ عُدت واستعدت رقم آخر اتصال وردني.. أخذ يرن، وأجاب الرجل نفسه، قلتُ له:

– لقد أخبرت السيد إيهاب برسالتك وقال بأنه مُهتم بشراء المنزل الذي ذكرته، فهلا ترسل العنوان لأزور البيت وأعاينه قبل أن نبت قرارًا نهائي؟

أملى عليّ عنوان المنزل، شكرته وأغلقت الهاتف من جديد، مسحت رقم المكتب عن ذاكرة الهاتف الأرضي، ثم انهرت جالسة على الكنبة وأنا أتأمل الورقة التي كُتب عليها العنوان، وأردتُ البكاء بشدة، لديه منزل آخر ورقم هاتف سري ومُساعدة مفقودة.. لديه حياة أخرى يحياها خلال غيابي عنه لشهرين في السنة ..حاولت أن أتذكر كيف يكون سلوكه خلال سفري لأمي؟ كان يتصل بي يوميًا، مرة واحدة في الساعة السادسة مساءً، يبدو غارقًا في عمله ويشعر بالملل، يبقى خلال هذين الشهرين في سوريا، بينما يسافر طيلة العام.. في أوقات متواترة، كم أنا غبية، لذلك يبدو البيت مرتبًا كما أتركه قبل سفري عندما أعود، فإيهاب يتركه كذلك، ما الذي تفعله في غيابي يا زوجي العزيز؟ نظرتُ لعنوان

المنزل، كان في منطقة ريف دمشق، يبعد حوالي ساعة بواسطة السيارة، يمكنني الذهاب إلى هناك ثم العودة دون أن يعلم إيهاب بالأمر.

بدلتُ ثيابي بسرعة جنونية، احتمالٌ واحد فكرت فيه كتفسير لكل تلك الأسرار، أن لإيهاب عائلة أخرى يعيش معها لمدة شهرين خلال غيابي مع أمي، زوجة ثانية، أو عشيقة سرية ربما #الغيرة

اتصلتُ بوعدٍ وأخبرتها لتحضر بأسرع ما يمكن، وجلستُ أنتظرها كسمكة تسبح في وعاء ماء مغلي، ما الذي يفعله الناس الذين تشتعل دواخلهم من الغيرة خلا أوقات الانتظار؟ ذهني يفكر بسرعة جنونية بكل السيناريوهات المحتملة، فلو فرضتُ بأنه يبغي العزلة فلن يحتاج لترك البيت أصلًا، كما أنه لا يتوقف عن العمل خلال هذين الشهرين..

أم أنه يفعل؟ يترك كل شيء ويذهب ليعيش مع عشيقته في الريف؟

ما عدت أعلم بم يجب أن افكر، رغم تزاحم الأفكار، فما عاد في ذهني مساحة فارغة لأي فكرة أخرى، كأن أتأنى أو أتعقل أو آخذ الأمور بروية، كنت كما لو أن أحدهم قد لكمني في مركز الثقة بداخلي وبات

كل شيء مشكوكًا به حتى يثبت أنه بريء، هل كنت أتحرك بلا هُدى؟

هل أجلسُ ؟ هل أشرب كوب ماء؟ أين أنت يا وعد؟

كنتُ أتحرك بسرعة جنونية بين طاولة الهاتف والكنبة حيث تجلس غنى تُراقب أمها على حافة الجنون.

ثم وصلت وعد، أخبرتها بسرعة:

-لا تتركي غنى لأي سبب، كما أن هاتفي مفتوح على الدوام فاتصلي لأي طارئ أو مُستعجل..

ثم دسست حفنة نقود في يدها وخرجت.

أدرتُ مفاتيح السيارة وانطلقتُ، وبعد دقيقتين عُدتُ وركنتها إلى جانب الطريق وأخذت أزفر أنفاسي ببطء، إن استمرت قيادتي بهذا الجنون فسوف أسبب الأذى لأحدهم، ولنفسي دون شك، لكن أنّى لي الهدوء؟عدتُ وانطلقتُ وأنا أشدّ على أسناني حتى أحسست بفكي يتشنج، زدت سرعة السيارة وحاولت التنفس بعمق، كيف يتوقف الإنسان عن التفكير؟

بدا كأن الطريق قد طال، كأنه صار من مطاط، يستطيل كلما شدّ التوتر أعصابي، يجب أن أشتت تفكير بأي شيء، أدرت المذياع لسماع الموسيقى لكن ذلك حفّزني فحسب فزدت الضغط على دوّاسة الوقود وأنا أطلق نفير السيارة فيم السائق أمامي يرفض الابتعاد عن يسار الطريق، كدت أرتطم به فيما أحاول الإسراع للوصول، لكنه لم يبتعد، ضربت على عجلة القيادة بيدي وأنا أزفر أنفاسي حارّة، وبعد عدة ثوانٍ بدا أن السائق سيبتعد، ولم أنتظر أن يغير رأيه خرجت بسيارتي من وراء سيارته بصعوبة حتى كادت السيارتان تتلامسان، لكنني لم أهتم، فأخذت السيارة الأخرى تنسحب، وفي تلك اللحظة سمعتُ رنين الهاتف فاسترقت نظرة إليه عن الطريق أمامي، فيم أومضت الشاشة برقم هاتف المنزل، لابد أنها وعد أعطيتُ إشارة إضاءة جانبية وأخذت يمين الطريق لأركن السيارة حتى أجيب الاتصال الوارد:

=أهلاً.. هل كل شيء بخير؟

ردّت بصوتٍ بدا بعيدًا :

=غنى ساخنة قليلًا، لا شيء يستلزم القلق، سأعطيها ملعقة دواء فقط..

عقدت حاجبي وقضمت طرف شفتي من الداخل ورددت:

=هل أعود إلى المنزل؟

=ذلك ليس ضروريًا في هذه اللحظة وسأخابرك كل نصف ساعة لأطمئنك.

شكرتها وأغلقت الهاتف ولبثت لحظاتٍ في مكاني، هل أكمل الطريق أم أعود؟ لقد تركت والدي مريضًا ذات يوم وسافرتُ للقاء أمي، كان يجب علي البقاء بجانبه يومها ولكنه أصر عليّ أن أذهب، أصرّ لدرجة العناد، فقد ربط مرضي طيلة العام باشتياقي لأمي، هل يمكن أن نمرض من كثرة الاشتياق؟ ومات قبل أن أستطيع رؤيته، أما أنا فلم يبارحني الندم قط، أخذتُ أبحث عن أقرب مخرج عودة في الطريق لأعود أدراجي، ثم تذكرت ما قاله الرجل من المكتب العقاري، أن دُنيا طلبت منه أن يتصل برقم منزلي خلال ساعات الصباح كي أرد أنا على الاتصال، إنها مفقودة وقد أجد سر اختفائها في ذلك المنزل، أكملت الطريق بهدوء، خيال غنى وضحكاتها كأنها تلبث بجانبي، وربما لأجلها فقط يجب أن أدع عني كل شيء وأنسى ما انكشف من أسرار على غفلة

منّا، ربما أتظاهر بأننا زوجين سعيدين ولا شيء يُعكر صفو حياتهم حيثُ أستيقظ وأرتب البيت وأطهو وأبدو جميلة طيلة الوقت بينما الغيرة تنهش داخلي حتى.. الطلاق؟

ماذا يعني أن أتسلل من وراء زوجي بهذا الشكل؟ عُدت ورفعت صوت الموسيقى لأعلى درجة فيم أمواج الصوت الحاد أخذت تُعذب غشاء الطبل في أذني، أحسستُ بالغثيان وزدت سرعة السيارة بتصميم، ما دُمت قد سلكت طريقًا ما، عليّ إن أستمر حتى نهايته.

وصلتُ إلى مشارف المدينة وصفعني جمالها كجرحٍ في الحلق سببته حلاوة العسل، اتصلت بالمكتب العقاري وطلبت منه تعليمات مُفصلة للوصول إلى المنزل من الشارع حيث أقف، وأخذت أتوغل في الريف تِبعًا للتعليمات، غياب الأثر البشري أخذ يطغى على المشهد أمامي، وسيطرت الطبيعة على حواسي كلها كانت الأشجار تُحيط الطريق من الطرفين، كان عُريها مُربك وشجاع، كأنها أرواح تقف بكل فخر وقد تحررت من سُلطة الجسد وضعفه.

قال الرجل أني سأجد مفتاح المنزل تحت أصيص الزهور أمام المنزل الذي كان مكونًا من طابق واحد ومعزول بشكل تام تُحيط به الطبيعة من كل اتجاه، مبنيٌ من الحجر، درت حول المنزل، كانت النوافذ خشبية بيضاء، ونظرتُ عبر النافذة، بدا منزلًا للعامة، لكل العابرين، هادئ بشكل مُقبض، أخرجتُ المفتاح من مخبأه وفتحت الباب، كان منزلًا بلا رائحة تميزه هو منزل لا يمكن الثقة به كالرجل الذي يختبئ فيه مني، أم أنه يختبأ من نفسه؟ فإيهاب لم يكن يمتلك رائحة تميزه، فعطره يضيع بسرعة وقُبلاته ذات طعم بلا ذاكرة أم أن تاريخ القُبل مُعطل في عقلي؟

رأيت شيئا يلمع على الأرض بجوار النافذة.. حدقت بها.. لا يمكن أن تكون ..اقتربت وقد طعن انعكاس الضوء عن الزجاج قرنية عيني، لكني لم أكترث ..حملتها.. إنها ساعة اليد ماركة رولكس.. أول هدية اشتريتها له يومًا ..مرمية.. حملتها.. مسحت دمعةً بسرعة.. فتحت النافذة.. داعب نسيم الريف وجهي.. تنشّقته بعمقٍ.. وضعتُ الساعة في جيبي.. كانت الكراسي مغطاة بشراشف لتحميها من الغبار.. أو من فضول العيون ..رفعت طرف الشرشف.. ليكُن تطفلي كاملًا.. لمحت

قميصهُ.. حديدي.. رفعته ..مُلطخ بآثار أحمر شفاه ملتصق على القماش كعلامة تجارية نتنة.. نفضت يدي منه وقد اقشعر جسدي.. أخذت أبحث حولي بسرعة بحثاً عن الحمام، أحسست بالغثيان ..لمحت بابًا صغيرًا في الطرف القصي للممر.. ركضتُ نحوه وأنا أغطي فمي .. دخلت الغرفة المغطاة بسيراميك أبيض.. وانحنيت فوق الحوض.. لا شيء ليخرج مني.. انتظرتُ قليلًا علّي أتقيؤ حزني.. رفعت رأسي.. انتشرت حولي آثار حضور أنثوي.. شفرات حلاقة خفيفة.. مشابك شعرٍ.. أدوات زينة.. وآثار زوجي أيضًا كريم الحلاقة.. مرطب ما بعد الحلاقة.. عطر.. كلها أسماء لماركات لا يبدّلها.. أحسست بأنني مستنزفة.. هل أحتاجُ لأدلة أخرى على خيانة رمتني بسهام صُدفتها لتحيي القهر بداخلي؟ رن هاتفي.. لمحت اسم وعد على شاشة الهاتف.. مسحت دموعي كأنها ستراني.. أجليت حلقي

– ..أهلاً

–حرارة غنى باتت مستقرة.. لكنها تسأل عنك

– ..ضعيها على الهاتف لأحادثها

- ..إنها نائمة الآن.. لكن سيكون جيدًا لها أن تراك عندما تفيق..

لم أرد

- ..شكرًا.. يجب أن أذهب الآن، مع السلامة .

أغلقت الهاتف.. ماذا سأخبر غنى عن والدها في يومٍ ما؟ ذهبت نحو غرفة النوم.. معتمة كانت.. عفنة الرائحة.. ضغطت زر النور.. ثياب نسائية منتشرة كيفما اتفق سخرت مني.. كأنني المخطئة.. تبًا لك إيهاب ..أخذت أطعن قلبي بفتح الأدراج وتقليب محتواها.. ثياب وسخة.. بقايا الطعام ..أوراق تغليف وأكياس فارغة.. أوراق رسمية.. بأسماء فتيات.. ثم جوازات سفر أجنبية وقطع نقد غريبة.. من يكون زوجي هذا؟ نظرتُ نحو الساعة.. يجب أن أعود.. حملتُ كل ما أستطيع حمله من أوراق.. فلو علم إيهاب بأني قد كشفت السر سيحرق كل دليل يدينه.. ثم خطر لي بأن أمر إدانته ليس مهمًا مقارنة بأمر فهمي لما يحدث.. ومحاولة التعرف على هذا الرجل الذي يدعى زوجي ..في آخر درج فتحته وجدت مسدسًا من نوع سميث ووسون .. حملته بخوف.. ما حاجة إيهاب بسلاح كهذا؟ سلاح شائع الاستخدام في

أميركا.. حشرته مع بقية الأوراق في حقيبتي واندفعت خارج الغرفة.. أبصرت النافذة التي فتحت سابقًا وقفت بها ورميت ساعة اليد التي أخذت تثقل جيبي كما قلبي.. مددت يدي داخل الحقيبة أتحسس الأوراق حتى لامس يدي معدنًا باردًا، وضعت إصبعي على الزناد.. لو كان إيهاب أمامي.. خرجت الرصاصة منفجرة من داخل الحقيبة.. واندفعت جانبًا بفعل الانفجار.. بينما تحطم زجاج النافذة المقابلة.. أحسست بيدي تحرقني، أخرجت السلاح.. نظرت إليه وتنشقت رائحة البارود

- ..ملاذ، ما الذي تفعلينه؟

استدرت نحو الصوت.. إنه هنا.. شيطان آخر.. عقدت حاجبي أقي عيني من دموع تزرعها ريح الماضي الشمالية في سماءٍ داخلي، لتلبدها بالغيوم

- ..هل تلحقني يا تمام؟

يغطيه اللون الأسود.. تبدو ذقنه كثة.. وشعره أطول.. كهدف جيد لجريمة أتوق لأن أرتكبها

- ..سأتبعك حتى مغرب شمس حياة أحياها ..

المسدس جاهز في يدي.. والسبب حاضر في رأسي.. وجهتُ فوهة المسدس نحوه ..ارتفع طرف فمه بابتسامة

- ..فلتكن ضربة قاتلة يا ملاذ.. هيا ..

عقدت حاجبي.. أهدد رجلًا يصادق الموت بالقتل؟

-هيا افعلي.. لن يكون ألم الموت أشد من اضطراري على العيش في حياة (منفي من الجنة) صدقيني هذا المسدس لا يخيف كما يخيف غدٌ قد أعيشهُ بدونك ..

رفعت يدي ووجهت المسدس نحو رأسه

- ..ستبدو أكثر احتراماً عندما ستصمت للأبد.. هل أفجر دماغك الذي يبدو أنك فقدته؟

خفضت يدي نحو صدره

- ..هل أفجر خافقك؟

- ستقتلين ملاذ التي تسكنه.. رصاصتك ستقتلنا معًا ..

ضغطتُ الزناد ثانية.. اندفعتُ للخلف.. بينما أحدثت الرصاصة ثُقبًا في السقف.. وقلت من بين أسناني ..

-متى ستصمت أيها الأحمق؟

لم تتغير وقفته شعرة واحدة.. لم ترمش عيناه.. لم يتحرك

- ..أكرر.. ستحتاجين روح القتال هذه.. فما خفي عنك.. كثيرٌ وكبيرٌ وشديدُ السّواد ..

زفرتُ أنفاسي بحرقة

- ..تبًا لكما ..

اقترب خطوة للأمام.. فابتعدتُ خطوة للخلف وعدت أرفعُ السلاح أمام وجهه

- ..دعيني أتولى كل شيء.. ابتعدي من هنا.. خذي ابنتك ودعي كل شيء خلفك.. فهذا المنزل ليس سوى قطعة من أحجية معقدة ونتنة وسامة.. أن تعلقي في براثنها فذلك يعني أنك ستتأذين بشكل لا يمكن إصلاحه .

ضحكت حتى دمعت عيناي.. ضحكة انتقام من خطاب متأخر

- ..لكنني خبيرة بهذا الأذى، أذى عصي على الإصلاح.. كحب يقذف بوجهي دفعة واحدة.. ورجل يخبرني بأن الحب دنس من عمل الشيطان ..

تقوّس كتفاه.. وزفر أنفاسُه

- ..أتمنى لو أستطيع إخبارك كل شيء، لكن ذلك سيجعل حياتك في خطر..

-أنت تجعل حياتي كالجحيم، هل تظن بأن من حقك الظهور في حياتي متى أردت فقط لأنك عرفتني يومًا؟ .

اتجه نحو النافذة ووقف يتأمل المنظر خارجًا

-أعرف بأني آذيتك بشدة.. لكن سيكون عليك الوثوق بي رغم ذلك، يجب أن ترحلي فورًا ..

أحسست بجانب جسدي يحترق، كانت المستندات التي تدين زوجي بتهمة الخيانة معي، لكن ذلك لا يعني أن أترك كل شيء وأهرب.. إنه والد طفلتي، ولن تعيش دون أبيها ما دمت أستطيع أن أحول دون ذلك

- ..هل تذكرين لقاءنا معًا في مجاهل إفريقيا؟ كيف ظن الجميع أننا حبيبان؟ كنّا الوحيدين اللذين يحملان جنسية عربية.. وكنت حولي طوال الوقت ..

الغليان داخلي يتصاعد.. وددت لو أمزق ذاكرته، كيف سيموت الماضي ولدى تمام نسخة عنه؟

- اصمت

- ..النار من حولنا كانت.. لكننا تذوقنا ثمار الجنة.. كيف يحوّل الحب النار إلى برد وسلام؟

-اصمت.. لا تدّعي بأنك تعرف الحب ..

نظر إلي.. كنت لا أزال أوجه المسدس نحوه ببلاهة.. لن أطلق النار من جديد ..ما فائدة قتله؟

- ..لم يكن حبًا في البداية، لكني رغبت وجودك حولي.. كان ذلك يجعلني أحس بالأمان.. وبعد ثلاثة أيام من بداية المباحثات.. وعندما ظننت حياتك في خطر علمتُ بأني أريدك بشدة.. بل بجنون.. وذلك أخافني كثيرًا

- ..لن أقف هنا لأسمع كلمة أخرى من ترهاتك.. لو كنت تستحق ما مضى لما تركته يصبح ماضيًا.. اخرج من هنا وابتعد عني كثيرًا يا تمام.. واشكر الله أن عندي ما أخسره.. وإلا ما ترددت في قتلك لحظة واحدة ..

ضحك بخفة من كلماتي.. التهديد كلماتٌ عاجزة.. وقد جعلني جرح روحي أكثر عجزًا.. اقترب من الطاولة ورمى مظروفًا أبيض عليها

- .شاهدي الصور والوثائق داخل هذا المظروف.. وأخبريني لأغرب عن وجهك بعدها ..

ثم اتجه نحو باب الخروج وأخذت يدي تنخفض تلقائيًا كغصن ذابل.. استدار لينظر نحوي عند الباب

- ..ربما سمحت لك بهجري مرة.. لن أكرر غلطتي تلك.. ولتكن حياتي ثمن قبلة قد لا أنالها ..

ارتفع لون أحمر نحو خديّ.. لكنه غادر دون أن يراه.. انهرت أرضًا، وأخذتُ بالبكاء.. كنت غافلة عن العيون التي تراقبني عن كثب، وهو غلط غير مقصود سأدفع ثمنه لاحقًا

" ما أقسى أن يعيش الإنسان فقط مع ما يعرف ويتذكر، محروما مما يرجو ويتأمل "

ألبير كامو

2004

تركت قطعة كبيرة من قلبي في قبر أبي في دمشق، وباتت المدينة كُلها توحي بالحزن، بيُتمي وبوحدتي من جديد، فالموت قضية تُثقل قلوب الأحياء، وتلغي عبء القضايا عن كاهل من رحلوا.. أما أمي فلم تستطع البقاء معي لأكثر من شهر، كان حزنها عميقًا كحزني، وأكثر بما، ولكن كان لديها ارتباطاتٍ أخرى لا تشملني.. فالحي أبقى..

تركتُ دمشق وانتقلت إلى بيروت لأعمل كمراسلة صحفية لجريدة يومية وأول مهمة كانت تغطية مباحثات بعثة السلام في أحد بلدان وسط افريقيا، انتقلتُ وفريق التصوير نحو الحدود لنقيم في الفندق الذي يحتضن المباحثات وهناك التقيت تمام من جديد، بعد تلك الليلة في منزل تمام هربتُ بسرعةٍ في الصباح، كان أمرًا صعبًا بسبب قدمي المُصابة فالبقاء قريبة من تمام يلزمه قوة احتمال فرقة محاربين في كبرى معارك حياتهم ولم أمتلك تلك القوة في ذلك الوقت، والدي مريض بشدة في دمشق وجسدي يعاني آثار ما بعد الصدمة وروحي عطشى للإجابات ولم أكن بحاجة لذلك الشعور الآخر المُخدر للعقل كلما نطق

ذلك الرجل كلمة وهكذا أخذت أتذكر كلّ شيء ذكره والديّ عن "صديقهم" المُشترك عبر ثمان سنوات، منذ التقيا لأول مرة قبل طلاقهما بفترة وجيزة كانا مُعجبين بالشّعر الذي يكتبه ويساعدانه للمشاركة في الملتقيات الثقافية، كان يعيش حياةً غريبة يحاول فيها مزج نمط حياته الشرقي بالغربي الذي حمله معه من باريس حيث درس الهندسة، فكان مُهندسًا متصوفًا خلال النهار وشاعرٌ جامح في الليل، ويمتلك شبكة من العلاقات في أنحاء العالم جعلته يدخلُ دون قصد في معترك السياسة..

كان نائب كبير المفاوضين وكنت في مهمة صحفية لأول مرة.. كانت مُهمة على خطوط النار وكدت أحترق

...

الحاضر..

أيقظني صوت وصول رسالة نصية من ذكرياتي الماضية.. فتحت الرسالة أتأمل حروفها التي امتزجت مع الدمع في عيوني وجعلت أمر قراءتها كجهد ضائع.. نهضتُ ونظرت نحو المظروف ثم حملته بتردد.. أقحمته في الحقيبة وخرجت مسرعة من البيت ثم أعدت المفتاح نحو مخبأه ..جلستُ في السيارة.. وجدتُ ورقة سوداء تحت ماسحة الزجاج.. ضغطت على أسناني بشدة ثم انطلقت بسرعة بينما أخذت الريح تصفع أطراف الورقة بشدة لكنها لم تطير.. أوقفت السيارة وأخذت أضرب المقود بقبضتي وأنا أكيل الشتائم لتمام وإيهاب والساعة التي جمعتني بهما.. رن هاتفي فجمدت ويديّ معلقتان بالهواء ..مسحت وجهي ببطء.. نظرت لشاشة الهاتف.. إنها وعد.. رفضت الاتصال وبعثت لها رسالة نصية "أنا قادمة" نزلت من السيارة وأخذت الورقة ووضعتها مع بقية الأوراق وعدتُ وانطلقت.. فلتكن حربًا إذًا

...

ما الإنسان إلا حلم. الإنسان لا يعود إنساناً إذا مات في قلبه الحلم "!

إبراهيم الكوني

2004

كل شيء يتعلق بتمام كانت تُحيط به إشارات الخطر، لكني لم أحفل بها كلها، وهكذا عندما رأيته يخرج مُتسللًا وحده خلال سهرة بدت كاستراحة بين جولات المفاوضات لحقتُ به، كانت المناظر حولنا ساحرة، كجنان مدّاهمة.. اخضرارها يسلب الأنفاس، لكني كنت مأخوذة بتمام عن كل ما حولي، كان يحمل ورقة ويتأمل كل ما حوله ثم يكتب عليها، إنه الشاعر الذي يسكنه ويُرافقه حيثما ذهب ويبقى جالسًا في زوايا عقله يتحيّن فرصة للخروج، ومتى حانت تلك الفرصة يقفز ليتولى عجلة قيادة عقل تمام ليكتب دون توقف، يكتب الكثير من الجمال والروعة، كان مسحورًا بكل ما حوله، بينما كنت مسحورة به، تبعته دون تفكير حتى وجدتُ نفسي على مشارف مغارة كبيرة دخلها تمام دون تردد، بينما بحثت حولي ورأيت مجموعة صخور تواريتُ خلفها، بعد قليل لحق به رجلان بثياب عسكرية مموهة، خرج لملاقاتهم وقد كنت أعرف هذين الرجلين، كانا قياديين في مجموعات المتمردين ممن

رفضوا الالتحاق بالمباحثات، لكن يبدو أنهم موافقون على لقاء تمام، وأخذ العرق يتصبب منّي، ما الذي أتى بي إلى هنا؟

سمعته يقول لهم: =كما ترى فقد جئت وحدي كما طلبت.

=تعجبني ثقتك أيها العربي.

بعدها احسست بنكز في كتفي نظرتُ للخلف فرأيت رجلًا يوجه بندقيته نحوي، شهقت بحدة وأنا أدفع ظهري بالصخرة ورائي..

=قفي وارفعي يديكِ..

لم أستطع ذلك وقد تحولت ركبتي لسائل هلامي فأمسكني الرجل من ذراعي وأوقفني عنوة ودفعني للنزول نحو تمام والرجلين، نظر تمام نحوي بعينين متسعتين ثم تحولت تعابيره لترسم لا مبالاة تامة سألني أحد الرجلين:

=من أنتِ وماذا تفعلين هنا؟

فتحت فمي لكني لم أستطع نطق كلمة واحدة فصرخ بالرجل الممسك بي:

=فتشوها!

=إنها عاملة التنظيف بالفندق. قال تمام.

نظر الجميع نحوه بينما أحكم الرجل الممسك بذراعي قبضته، بينما أكمل تمام:

=لقد أخبرتهم ليبلغوني أي رسالة تصلهم من لبنان، لأجل المساعدات التي طلبتها ولابد أنهم أرسلوها لتبحث عني، صحيح؟

بقيت حالة الخرس مُهيمنة علي بينما قال أحد الرجلين ببطء:

=لا تستطيع المخاطرة بتحريرها.

=يمكن أن أضمن لكم أنها لن تنطق كلمة واحدة.

=نثق بضماناتك لكنها شاهد لا يمكننا أن نثق بصمته.. سوف تبقى معنا "كضيفة" حتى نتفق.

=إنها.. أغبى من أن تنطق، أؤكد لكم.

نظرتُ نحو تمام مصعوقة بينما وجّه اهتمامه كله نحو الرجلين، كانوا يعاملونني كما لو كنت كيس قمامة مُلقى بجانبهم ، هز الرجل رأسه نافيًا وقال للرجل الممسك بي:

=ضعوا ضيفتنا في المغارة..

أخذتُ أقاوم القبضة الحديدية وأنا أنظر نحو تمام.. الذي قال ببرود:

=ألا يدل هذا على أنك لا تثق بحُكمي؟ وعندها لم نكمل؟ لنُلغي المساعدات التي طلبت مع إمكانيات اللجوء السياسي لبعض أفراد جماعتك..

=هل تُهمك الفتاة لهذه الدرجة؟

للحظة نظر نحوي ثم هز رأسه نافيًا وأجاب:

=يهمني أنك لا تأخذ كلمتي على محمل الجد.

أخذ تمام والرجل يُحدّقان ببعضهما، نظرة تمام لا تنكسر، رجل لا يعرف الاستسلام فأومأ الرجل:

=حسنًا ضعوها في المغارة مؤقتًا ولا يمُسها أحدٌ بأذى سنُحررها بعد أن يُصبح الاتفاق مُعلنًا، تقول بأننا لا نثق وأنت لا تثق بأننا لن نمسها بأذى..

رد تمام بملل: =حسنًا فليكن، لن أدع أمرًا تافهًا يحول دون اتفاقنا لكن إن سمعتُ صوت استغاثاتها فسأعتبرك رجلًا بلا قضية يستعبد الضعفاء.

=لا تقلق أيها العربي، لستُ مجرم حرب، أنا مجرد ثائر يعرف الحب عندما يراه.

عقد تمام حاجبيه بينما ارتفع لون أحمر إلى خديّ، دفعني الرجل نحو المغارة الصغيرة حيثُ أصبحتُ أسيرة وقفتُ في الظلام بينما انهمرت الدموع بصمت من عيني، بعد لحظة أحاط حضوره بي، أحسست به قبل أن أراه، طغت رائحته على كل شيء

=لا وقت لدي لتأديبك الآن، لكنني سأفعل لاحقًا، فلا تصدري صوتًا حتى ننتهي، أعدك بحياتي أن أخرجك من هُنا، ولكن أسرهم لكِ سيكون أرحم من غضبي بكثير.

استدرتُ نحوه ببطء فنظر إلي بصمتٍ ثم أعطاني منديلًا وخرج مُسرعًا.. بقي جسد الرجل الذي يحرس باب المغارة ويمنع الضوء والهواء من الدخول.. كنتُ أختنق.. أخذتُ أشهق بحدة وأخذ الرجل ينظر نحوي بارتباك.. ابتعد عن مدخل المغارة قليلًا ولكنني بقيتُ أرى خياله، سيقتلني الحب كما فعل بأبي، لكنني سأموت باكِرًا.

الوقت يسير ببطء في الأسر بينما أنتظر، والترقّب يتآكلني ببطء، إن علم أني صحفية فسوف أموت هذه الفكرة جعلت جسدي يرتجف، فمن سيدخل المغارة أولًا؟ الموت أم تمام؟ أخرستُ ساعة اليد وقد أحسستُ بلحن تكّاتها يصيبني بالجنون، كأنه يعزف عزفًا شيطانيًا على أعصابي التي تكاد تهترئ، لم لحقتُ به بحق السماء؟ ما الذي فكرتُ فيه؟ لحاقي به كان استجابة لنداءٍ بقي يحُثني أن أبقى قريبة منه فحسب، وقد كنت أبحث عنه دون أن أدري مذ وصولي إلى هنا، كأنني عندما أبتعد عنه لا أحس بأنني موجودة، كأنني لا أحس بأنني على قيد الحياة إلا قربه وهذا مستوىً شعوري جديد لم أعتده من قبل ولن أحس به ثانية، كان صوته يتسلل إلي بين الفينة والأخرى، يدلني بأن الرجلين هما المسيطران على الحديث ثم ساد الهدوء التام، فهل رحل وتركني؟ عدتُ أبكي من جديد وعندها غاب الضوء من جديد فنظرتُ نحو المدخل ورأيته هناك، وقفتُ جامدة كفأرة بينما دموعي تنساب، اقترب مني:

=كفي عن البكاء (كان يصرّ على أسنانه) كفي (صرخ بي ثانية)

رفعت يدي لأمسح دموعي بارتجاف وأكمل: =سنذهب الآن نحو الفندق، سينضم الرجلان رسميًا للمباحثات وستبقين تحت المُراقبة ريثما نقيم مؤتمرًا لنُعلن فيه الأمر..

اندفعتُ نحوه وأمسكتُ مقدمة قميصه:

=أرجوك لا تتركني هنا..

نظر نحو يدي ثم نظر نحو وجهي وأبعد يدي عنه بعد أن زفر أنفاسه وهو يشد على يدي بقوة لأتركه وقال:

=يجب أن تثقي بي، سأخرجكِ سالمة ولو كلّفني المر إن أقتلهم كلهم فلا حاجة للعالم برجالٍ لا يفون بوعودهم، سأخرجكِ..

بدت كلماته كوعد الصباح، سيُخرجني وهذا أكيد كما تُشرق الشمس كل يوم..

=ابقي هادئة بحق الله، بكاؤك يوتر أعصابي كلها ويجب علي أن أبقى هادئًا..

خرج مُسرعًا بينما نادى بي الحارس لأخرج وأمسك ذراعي بقبضة حديدية، أخذتُ أشعر بالملل من استبدادهم، ذلك الأمر جعل ملامحي

تكتسي بالجمود وهدأتُ، أخذتُ أفكر بعواقب الكذبة، لن أستطيع حضور المؤتمر الآن، ستتكلل أولى مهامي الصحفية بالفشل، متى كنتُ المشاعر لتتحكم بي؟ ارتجفتُ عندما فكرتُ بما كان يُمكن أن يحصل لو علم أني صُحفية.. أن يقتلني على الأقل، كأن تمام بات هوسًا وصرت مهووسة به، وبتّ أتبع هوسي به كأني أقترب لدرجة المرض به، مرضٌ أصبت به مذ تلك الليلة في بيروت، هوسي بات يختار الطريق لأسير به وليس قلبي، فالقلب أضعف من أن يحتمل عواقب الاختيار بل من يختار هو ذلك الجزء المجهول من عقلي والذي يدفعني لما وراء الحدود، فيرسم لي طُرقًا بلا نهايات ويوهمني بأني حرة الاختيار، لكن الحرية لن تجتمع مع الهوس في جسد واحد، الحرية عبث الوقوف أمام اختيارات ستمنعك الحيرة من اتّباع أيًا منها حتى يُطلق سراحك الضياع، حُبست في غرفة في الفندق، رُبما سيُعلمني هذا درسًا عن عواقب الوقوع في.. الحب؟ لا لا يجب أن أزرع هذه الفكرة في رأسي، بل هو من قذفها في كياني منذ تلك الليلة، سأقاومها وأرفضها رغم علمي بأني مهزومة على

أي حال، خيالي يُعذبني، ثقتي به وأملي بأنه سينقذني هو بالذات ما سيجعل حياتي بدونه كحياةٍ دون أمل..

بعد ثلاث ساعات فُتح باب الغرفة ووقف تمام به، خرجتُ ببطء لأواجه نيران الغضب في عينيه

=ما الذي خطر لك لتلحقي بي في مكان لا تعرفين عنه أي شيء.

ما الذي سأقوله له؟ (أنه سكن خيالي لأشهر وأني عندما أدركتهُ واقعًا لم أفكر في مقاومة ذلك للحظة؟)

=إنه فضول الصحفية بداخلي.. (اخترت قول جزء من الحقيقة)

=هل رضي فضولك عن العذاب الذي يبدو بأنه يطلبه طائعًا؟

ابتعدتُ عنه واستندتُ إلى الحائط وزفرتُ أنفاسي ببطء

=لقد فوّت المؤتمر الصحفي، ربما سأُفصل من العمل، وربما ذلك أفضل نظرًا لما حدث..

=لقد كدتِ تدفعين حياتك ثمنًا لفضولك وما يهمك هو عملك؟

هربت بعيني منه ونظرت لموطئ قدمي ورددت

=نعم، علي التفكير بتعويض كبير قد يجعل رئيس التحرير يعفو عني.

أخرج سيجارة من جيبه ووضعها في فمه وأخذ يتنفس من خلالها سألته:

=هل تُدخن؟

نظر إلي بطرف عينه وأمسك السيجارة وقال:

=كان يجب أن أشكوكِ لأمكِ.

=لا حقًا لا يجب أن تشكوني، إذًا هل تُدخّن؟

=لا، أحب رائحتها فقط..

=هكذا يبدأ الأمر، تُحب رائحتها أولًا، ثم تأخذ بالتدخين على فترات مُتباعدة ثم تُصبح عادة يومية، وقبل أن تُحس بأي شيء تتحول لرجل يحرق رئتيه بعلبتي سجائر يوميًا.

=رُبما التدخين ضار ولكن الفضول قد يقتل الإنسان بشكل أسرع.

=حسنًا أنت مُحق، انا أولى بنصيحتي الخاصة .

أعاد اللفافة إلى جيبه :

=كما ترين يا.. ملاذ.. لدي أعمال أخرى غير إنقاذك فهلّا تلزمين الحذر؟

ثم ابتعد، وضجّت خلايا جسدي بالأنين.

==

الاتصال مع رئيس التحرير كان طافحًا بالغضب من جهته وبملل كبير من جهتي، لا أملك أن أخبره حقيقة ما حصل، ولم يقتنع بأي من تبريراتي فقد جعل غيابي الصحيفة تخسر الخبر، وبدل أن أثبت نفسي ومقدرتي لأثبت خطأ الشائعات التي تلوك سيرتي على أنني الفتاة التي حصلت على عملها بسبب سمعة والديها وشهرتهم، رغم أنني تقدمت للعمل باسم مُستعار ، وقمت بالمقابلة بنفس الاسم وصرّحت باسمي الحقيقي بعد شهرين من بداية العمل وما قد أخذتُ أتصرف كمراهقة واقعة في الغرام لأؤكد شكوك الحاقدين، وفجأة هتفتُ:

=ماذا عن لقاء حصري مع الرجل الذي حمل الثّوار على خوض المباحثات؟

=تمام سمعان؟

=بذاته، فهو لم يصرّح بتفاصيل لقاءاته السرية مع أبو الأسود والاسماعيلي –القياديين في جماعة الثوار– مع أحد.

=حققي ذلك ويمكنني نسيان أمر تقصيرك بشكل كُلي، وستحصلين على مكافأة أيضًا.

...

لم يكن تمام متحمسًا لفكرة لقاء حصري مع الصحيفة التي أعمل بها، نعتني بالمُستغلة، وقد كنت كذلك بالفعل، فقد كان شخصًا يُقدس خُصوصياته، ولا يحتك مع الإعلام بشكل مُباشر أو شخصي، وهكذا تضمنت عملية إقناعه الكثير من الاستعطاف والاسترحام والابتزاز العاطفي، فحمّلته وزر تدمير مستقبلي المهني لو طردت من أول عمل بسبب الإهمال، وبقي جوابه "لا"

وهكذا رتبت أغراضي للعودة إلى بيروت على متن أول طائرة مُغادرة، فالبيان الختامي للمؤتمر كان واضحًا، ولا يُسمح بأي أسئلة من الصحفيين، وبالتالي يُمكن الحصول عليه مُفصلًا من الموقع الإلكتروني الرسمي للحكومة، دون الحاجة لحضوره بشكل شخصي..

وبينما كنت أبغي الخروج من غرفتي بالفندق سمعتُ رنين الهاتف، لا بد أنه رئيس التحرير وقد كنت أتجاهل اتصالاته ولكن الرنين لم يتوقف، رفعت السماعة وقلت بصوتٍ خافت:

=ألو؟

=لِم لم تحصلي على تصريح لحضور البيان الختامي؟

كان صوت تمام باردًا ومُتباعدًا، جلستُ على السرير بجوار الهاتف:

=أنا..

=انزلي حالًا للحضور وبعدها نقوم بذلك اللقاء الحصري الملعون.

ثم أغلق سمّاعة الهاتف فقفزت واقفة، كلمة واحدة منه قلبت مزاجي رأسًا على عقب، اتصلت بمدير التحرير وأخبرته النبأ السعيد ثم طرت لأسفل، وجدتُ تصريحًا باسمي على الباب بينما التقيتُ الفريق في الداخل، كان تمام يقلّب نظره بالجموع.. فجلستُ في الركن البعيد من القاعة كفأرة، لم أكن جاهزة للقاء حصري، لم أحضّر أي سؤال، سأنتظر بصمت حلول اللقاء، قد يكون كارثيًا، لكنه أفضل ما أستطيعه تبعًا للظروف، إلا لو صار لقاءًا حصريًا صامتًا، كعادتي بالخرس في حضرته،

وجدتني عيناه، حدّق بي، مرّ كل شيء لاحق بضبابية، واللحظة التالية التي أذكرها بوضوح هي جلوسه في الكرسي المقابل لنقوم بتلك المُقابلة كمُقاتلين يتهيآن لمبارزة حاسمة، لكنني لم أحضر أيًا من أسلحتي، بدا كأنه يكشف خطط الغير موجودة كلها، فقال بصوت بطيء:

=ارتجلي!

نصيحته خطرة، واختلطت الكلمات في عقلي، أود أن أعرف كل شيء، كأن يتحدث دون توقف. ثم قفز سؤال ما لعقلي:

=ما سر نجاحك في إقناع قادة الثوار للانضمام للمفاوضات؟

ضيّق عينيه وردّ:

=لا سر بالموضوع، نجاح أي عمل سياسي يقوم على براعة أحدنا بتحليل الشخص الذي يجلس أمامنا ليعرف مقدار المخاطرة التي يمكن له أن يخوضها، أن نجعله يطمأن لكل ما يحذر منه عادةً، أن يطمأن على هويته وكيانه، ويكون ذلك بالانعتاق الكُلي من الأنا والتخلي عن الفضول الذاتي والاهتمام بالآخر بشكل كُليّ، حتى أرى من خلال عينيه..

قاطعتُ استرساله ببطء: =هل تفقد ذاتك خلال الأمر؟

=تفقد الكثير من ذاتيتك، لا ذاتك، ولذلك وعندما يُخلقُ في عالمك شخصٌ لا يرى فيك، مصالحه معك وحسب، شخص ينظر نحو روحك مباشرةَ لا عبرها، كأنك بوصلته، كأنك مُخلّصه، عندها يتّقد حماسك نحو ذاتك من جديد، تُصبح مُهمًا من جديد، لأنك تهمّ أحدًا آخر، تُحسّ بكينونتك عبر كيانه، ولأجله تكسر القواعد، وتخرق القوانين، ويصبح الخيال هو واقعك، والواقع استراحة من ضغط شوقك إليه فحسب

(فكرتُ بصمتٍ بينما عيناه مُعلقتان بعيني، أن ذلك التصريح ليس للنشر) أخذتني كلماته لعالم الاستفهام أن هل كان يقصدني؟ أم أنها مجرد..

=السؤال التالي يا ملاذ..

=أليس من الصعب أن تنعتق من الأنا وتتحد بالآخر بشكل كُلي متى أردت؟

=صعب؟ بل أظن هذا ما نفعله مرارًا خلال يومنا، عندما نحيا بشكل عادي، لا نكون أنفسنا، بل نكون أحد أشباهنا الأربعين أو كلهم، ولا تظهر الأنا إلا في ثورات غضبنا العارمة، لا تظهر إلا في أخفض نقطة من قاع يأسنا، أما يومنا العادي والمُمل، فهو يوم استراحة الأنا بشكل كُلي.

مسّدتُ جبهتي ثم قلت ببطء: =ألم تتملكك الشكوك بشأن موافقتهم لخوض المباحثات؟

لوى شفتيه مُفكرًا: = بالطبع، فاليقين الكُلي هو ترف الحمقى فقط، والنية الطيبة لا يُمكن أن تؤدي لنهاية سعيدة بالضرورة، وإيجاد حلولٍ للمشاكل أمر لا يُزعجُ إلا قلّة من البشر، فعندما يُلاقون بعضهم يُقدّرون ذلك الأمر بشدة، فحتى لو لم نجد حلًّا أو أرضًا مُشتركة فذلك لن يكون لأننا لم نبذل قصارى جهدنا، بل لأن الحل مُستحيل في تلك اللحظة وحسب.

=أتعترف بالمستحيل؟

ابتسم: =المُستحيل الآني، لكنه يُصبح ممكنًا إذا كرّسنا الوقت الكافي لقتل استحالته.

= لم اخترت ذلك التوقيت لتلتقي بالمحاربين؟

=لستُ أظن بأن الأوقات أو المواعيد التي تحدث فيها الأشياء هي من اختيارنا، بل يتقاطع خطي الزمان والمكان في نقطة على الطريق وتحدث الأشياء، السياسة فعل خارج الزمن، أو أن الزمن داخله، فالماضي والمستقبل موجودان في حاضر كل حدث سياسي، فكل شيء مُتصل، بالتالي فأنا أتابع مرور الزمن ولا أملك زمامه أبدًا، وأكبر أحلام أي سياسي القليل من الوقت ليُصلح فوضى العالم من حوله. أو يزيده فوضى في بعض الحالات.

=إذًا فكيف حافظت على اتزانك رغم يقينك هذا بأنك لا تملك زمام أي شيء، لا الوقت ولا اليقين وحتى مكان المفاوضات كان غريبًا عليك..

=عندما لا أملك زمام الأمر أفكر بأنني كدمية في مسرح العرائس، سيستمر مُحرك خيوطي بمنحي مساحة حرية وصفاء، سيُبقي الخيوط

رخوة بدل أن يخنقني ما دمت أبذل أقصى قدرة إبداع لدي للقيام بأداءٍ يروق الجمهور، فالتصفيق ليس لتغذية الغرور، إنه إشارة لاستمرار الحركة، ولدفعي للمزيد منها.

=ما هو أكبر تحدٍ واجهته خلال سعيك لإنجاح المُباحثات؟

ضحك بنعومة ثم قال: =إنه تحدٍ سهل بالفعل، ولكنه ممتنع، وهو حمل الأطراف على تنفيذ قراراتهم، فكُل واحدٍ منهم يميل لإلغاء ذلك القرار كلما تحرك، فيجب أن أكون صوت ضميرهم، وأبقى صاحيًا عندما ينام هو..

رنّ منبه الهاتف الذي يحمله فوقف ومسّد ثيابه: =يجب أن أذهب، إنه عشاء ختامي يجب أن أحضره وإلا فلا أحد يعلم ما قد يحدث بين الطرفين.. وأنتِ ماذا ستفعلين؟

وقفت أواجهه وأنا أفكر(كنتُ أخطط للتحدث إلى ما لا نهاية، أسألك كل ما يدور بخلدي مذ ولدت، لتُذهلني بإجاباتك وتنسف ثوابتي كلها، ثم إن كنتُ محظوظة فقد تروي لي قصة ثانية) وقلت بصوتٍ عالٍ =سأعود إلى بيروت على متن أول طائرة..

=جيد..

مدد ذراعيه فوق رأسه ثم استدار ليخرج من البهو، توقف لدى الباب وقال:

=لقد رأيتِ أن القرب مني خطير، فابتعدي يا ملاذ، فأنا لا أثق بقدرتي على الابتعاد.

ثم خرج، مرّت اللحظات بطيئة عقب تصريحه الخير، وشعرتُ بالاختناق، كنت أحبس أنفاسي، فلو أطلقتها فستنتهي لحظة اعترافه وستبدأ لحظة وحدتي، كانت آلة التسجيل ما زالت تسجل كل شيء، أوقفتها بسرعة كأنني كنت أسترق السمع استراقًا، ارتفع لون حار لوجهي، يجب أن تُسنّ قوانين تمنع الرجال من أن يخبروا النساء اعترافات كهذه، فجنة الوهم مصنوعة من الكلمات.

==

الحاضر..

لم يخفه المتمردون.. لم تخفه لعبة السياسة.. ولا غدر السياسيين.. لطالما تسلل لفلسطين ولم يرهبه الصهاينة.. لكن قلبي أصابه بالرعب.. إنه شرقي ..يُكيل التهم للمرأة التي تحبه ويُحاكمها دون دليل ثم يشنقها بسوء ظنه.. رغم أنه الوحيد الذي رسم على شفتيها أبجدية الهيام ..كانت سهام الكلمات التي وجهها نحو الحب بارعة، فقتلته.. وهاهو يرثي على الأطلال ..لقد طويت تلك الصفحات.. وهناك كتاب رجل واحد بات يهمني أن أقرأه.. إنه إيهاب وحسب .وصلتُ البيت.. استقبلني زوجي بوجه جامد.. كان يقف خلف الباب كأنه ينتظرني ..وأحكمت قبضتي حول الحقيبة التي تحوي الأوراق

- ..أين كنت؟

-أجمّد اشتراك النادي والمكتبة لأجل السفر ..

لم أكذب.. كنت قد فعلت هذا.. احتجت للبحث عن عدة أشياء رأيتها في الأوراق ..وصرت متأكدة بأني يجب أن أخاف من إيهاب..

- ..جيد.. كل شيء بات جاهزًا.. أقترح أن نقرب موعد سفرك

- ..لا مانع عندي ..

رددت بسرعة وتجاوزته نحو غرفة النوم وأغلقت الباب خلفي وتنفّست ببطء.. ثم دمعت عيناي.. ضممت قبضتي يدي حتى اخترقت أظافري جلد راحتيّ، مسحت دموعي بسرعة.. رميت الحقيبة داخل الخزانة وأقفلت الباب.. دخل إيهاب الغرفة واستند إلى الحائط بجوار الباب وعقد ذراعيه أمام صدره

- ..هل تناولتَ الغداء؟

كان ينظر نحو الخزانة.. كررتُ سؤالي

- ..لا شهية عندي.. لنخرج معًا.. نسهر في مطعم ما.. كوداع قبل سفرك

- ..حسبتها فرصة لتستعيد أيام العزوبية.. وحدك في المدينة لتفعل ما تشاء ..

نظر نحوي بوجه جامد.. إنه يلعب لعبةً ما

- ..مثل ماذا؟

رفعت كتفي وأنزلتهما.. لا أعلم.. وعادت صورة الأدوات الغريبة التي رأيتها في منزل الريف إلى رأسي.. لا يبدو إيهاب كساديّ يستمتع بإيلام النساء ..وانتابتني قشعريرة.. ما عدت أعرف كيف يبدو إيهاب أصلاً

– ..كما أن غنى مُتعبة.. لا يمكنني تركها

– ..هذا بالضبط ما كنت سأقوله.. لم أظن أن اشتراكي النادي والمكتبة أهم من العناية بابنتك ..

وطُرِقَ باب الغرفة

– ..تفضلي

فتحت وعد الباب.. نقّلت نظرها بيني وإيهاب وقالت بصوت أجش

– ..يجب أن أرحل الآن

– ..وأنا يجب أن أقوم بأمر ما.. سأوصلك.. (ثم قال لي) حبيبتي سأعود سريعًا ..فكري بدعوتي ..

خرجا ..ذهبت بسرعة للاطمئنان على غنى.. كانت لا تزال نائمة.. عدت بسرعة نحو غرفة النوم.. أبقيت باب الغرفة مفتوحًا.. وأخذت أقلب بين الأوراق التي حملتها معي، ثم حملت المظروف الذي أعطانيه

تمام.. كان يحوي صورًا.. تبدو مرتبةً زمنيًا.. إيهاب قبل خمس سنوات.. لم نكن متزوجين حينها.. يبدو مع فتاة في سيارة.. ثم داخلان نحو بناء في المدينة.. من تكون؟ بعدها كانت صورتي وإياه مع مجموعة من أصدقائه.. وهاهي الفتاة.. هل كان على علاقة بصديقاته؟ صورة لي وله خارجان من حفل الزفاف نحو السيارة.. ثم صورة له مع فتاة أخرى في سيارته.. وصورة تالية لهما وهما يدخلان المنزل الريفي.. تاريخ الصورة يعود لأربع سنوات.. كنا متزوجين وقتها... ثم صورته في مكان غريب.. بلد آخر.. في الصورة التالية يبدو كأنه في فلسطين.. في حيفا.. يسير مع رجل يرتدي "الكيبه" القبعة اليهودية المعروفة.. ثم صورته في لبنان.. يحيط كتف دنيا بذراعه.. شهقتُ.. قلبت صورة أخرى.. إنه مع فتاة أخرى في دمشق.. وصورة أخرى.. قبل ثلاث سنوات.. إنه مع فتاة مختلفة.. تكررت صورة تجمعه مع فتاة مختلفة عدة مرات.. تكررت صورة تجمعه بدنيا مرة ثانية.. بدت مختلفة.. ربما لأن فترة زمنية تفصل بين الصورتين.. ربما تداخلت الصور في عقلي.. كانت الصور كقطع أحجية متداخلة.. لا أعرف كيف سأرتبها بما أني لا أحيط

علمًا بالصورة الكُلية للغز.. الصور التالية تُظهر خيانته لي بوضوح.. اختلطت الرائحة التي تفوح من الصور بمشاعر القرف التي انتابتني مم دفعني للركض نحو الحمام لأتقيأ.. سمعتُ صوت غنى.. عدتُ مُسرعة وأعدتُ الصور كيفما اتفق للمغلف ثم أقحمته في الحقيبة وأعدتُ كل شيء للخزانة.. أو هكذا ظننت.. ثم ركضتُ نحو ابنتي.. احتضنتها وأخذت أبكي ألم كي الخيانة على جدران القلب

..

كانت الساعة السادسة وخمسين دقيقة عندما سمعتُ باب المنزل يُفتح، أصغيت السمع، لكن لم ينادي إيهاب اسمي كالمُعتاد، غنى غرقت في النوم من جديد بعد أن أعطيتها جرعة ثانية من الدواء، خشيتُ الخروج من الغرفة، أي رجل سأقابله وقد دمّرت الحقيقة وهم حياتي التي حسبتها مثالية، أسرتي ممتازة، بيت كبير ، ولدينا بيت آخر يُطلّ على البحر، سيارتين فخمتين، ولدينا شبكة علاقات مع كُبرى عائلات البلد.. وخارج البلد.. وأصدقاء حيثما ذهبنا.. حياتنا مرفّهة، نقضي كل سنة إجازة لمدة شهر في بلد مختلف، كل شيء يبدو رائعاً.. على السطح..

لكن العمق يحوي أسراري.. وأسراره أيضاً.. ماضيّ الذي أحسبه مُنتهيًا.. لكن ماضيه يمتد حتى الحاضر وسيؤثر حتمًا على مُستقبلنا .. فعشيقته قررت أن تصلني تلك الوثائق في حال عدم ردها.. بدل أن ترجع لإيهاب ..لم؟ هل هي قصة رومانسية مقززة أخذت منحى خاطئ؟ نظرتُ نحو غنى وشعرتُ بالغضب من إيهاب، فما يحدث سيضع طفلتي الصغيرة في دوّامة أسرار قذرة ونوبات غضب والكثير من الألم، لكني لا يمكن أن أواجهه دون معرفة القصة كاملة.. قصة يعرفها إيهاب ودُنيا وتمام رُبما.. ولست أثق بأيٍ منهم.. تنفّستُ بعمق وخرجتُ من الغرفة.. أغلقتُ الباب بإحكام، اتجهت نحو المطبخ ملأت كأس ماء

– ..ما هذه؟

التفتُ برعونة وأوقعتُ الكأس.. رأيتُها.. هذه.. صورة في يده.. تحطّم الزجاج.. وتناثرت القطع في كل مكان.. إنها صورة تجمعه ودُنيا، يحيط كتفيها بذراعه، حيث يبدو خاتم الزواج لامعًا.. فدُنيا تعلم أنه مُتزوج.. لم أرد، الرد سيبدو ساخرًا

- ..كيف حصلت عليها يا ملاذ؟

حركت قدمي اليمنى لتتحسس قدمي اليسرى وقد أحسست بشظايا الزجاج قد اخترقت جلدي كإبر دقيقة

- ..الأسرارُ أيضًا تتوقُ لأن تشارك نفسها كلما اجتهدنا في إخفائها ..

عقد حاجبيه.. ثم قال ببطء:

- ..أية أسرار؟ هذه الصورة لا تعني أي شيء سوى أنك تراقبينني منذ مدة طويلة ..اتجهتُ نحو المكنسة، أمسكتها وجمعت الزجاج ببطء وقلتُ:

-ربما لو راقبتك فعلًا لما كنت أعيش الآن معك تحت سقف الخداع لخمس سنوات ونيف ..

أمسك المكنسة ليجبرني على مواجهة الرجل الذي ظننت أني أعرفه.. لكن لا.. بدا وجهه غريبًا.. وقد تداخلت ملامحه مع ملامح الفتيات في الصور.. مع ملامح الأسماء المستعارة في جوازات السفر الكثيرة المزورة

- ..ما الذي أخبرك به ذاك الرجل؟

نظرتُ في عينيه مصعوقة.. بينما أكمل:

- ..رأته وعد في موقف السيارات.. كما لمحته في مركز التسوق

- ..أقل بكثير مم أخبرتني إياه دُنيا.. خائن ..

رميت المكنسة عليه وقد انهار سد تماسُكي الداخلي وانفجرت الدموع

- ..لم تفعل هذا بنا؟ لم تُعاشر هؤلاء النسوة خلال غيابي؟ هل قصرت في حقك يومًا؟

حاول الاقتراب مني.. مد يديه نحو وجهي وأمسك برأسي بين يديه.. نظرت في عينيه.. رأيت الكثير من الأكاذيب.. والقسوة.. والتصميم.. أبعدتُ وجهي عنه:

- ..لستُ الخائن الوحيد هنا.. أنت لم تنسي ذلك الرجل يومًا.. وهو لم ينسك

- ..لم أذكره يومًا.. حتى حدث ما حدث البارحة.. لم أخنك قط، لا بمشاعري ولا بجسدي.. لقد دفنته قبل زواجي بك.. ولم أزر ذلك القبر أبداً ..

استدار وخرج من المطبخ غاضبًا فجلستُ القرفصاء وأحطت رأسي بيدي.. بينما أخذ جسدي يرتجف.. عاد ورمى بمجموعة صور

نحوي.. فوقفت بضعفٍ أنظر نحو الصور المتناثرة.. ببعضها شيء مشترك.. تمام ينظر نحوي من بعيد.. بينما تفصل فترة زمنية بين الصور.. يبدو بها تمام متنكرًا.. والشيء المشترك الثاني هو أني لم أكن أنظر نحوه قط.. كنت غافلة عن وجوده تمامًا

- ..إذًا كما ترى بوضوح.. لم أنظر لغيرك أبدًا.. فهل نظرت إلي.. هل رأيتني مرة عبر السنين.. أم أنني مجرد ظل لنسائك الأخريات.. شيء تركن إليه كاستراحة بين شوطين؟ زوجة صغيرة مملة في البيت؟ قطعة زينة لذراعك؟

-إنها مجرد مغامرات عابرة.. لم يكن المفروض أن تعرفي بها .

ها هو يعترف.. غير نادم على ما فعل.. لكنه يشعر بالانزعاج لأني عرفت

- ..وما لا تعرفه ملاذ لن يضيرها صحيح؟

أحسست بالحب قد تناثر كذلك الزجاج.. ولا يمكن لشيء أن يصلحه.. شعرت بخواء خلّفه موت شيء كبير بداخلي.. للمرة الثانية.. مرة خنتُ نفسي.. وهي المرة خانتني.. وأخذ حب السنين كلها يتحول

لغضب.. شيء أسود أخذ يتسرب لداخلي ..كزيت أسود مغلي محترق.. ووصلت لدرجة الغليان وأخذت أرمي نحوه كلّ ما وصلت إليه يداي.. سكاكين.. وعاء السكر.. كأس زجاجي آخر.. لكنها العلّة نفسها ..كنت أخطئ التصويب.. بينما يتفادى ضرباتي بسهولة كأنه يبعد ذبابة عن وجهه ..يجب أن أشتمه.. أن أصرخ فيه.. لكن غضبي كان كبركان داخلي أحرقني.. توقفت عن كل ذلك الجنون.. ثم اتجهت مسرعة نحو غرفة النوم.. أخرجت حقيبة وأخذت أرمي أغراضي بداخلها

– ..ماذا تفعلين؟

–سأسافر إلى أمي كما كان مقررًا.. لن أبقى مع رجل خائن

– ..لم أخنك.. (صرخ بي) إنهن فقط بديل مؤقت أفرغ به شهواتٍ أخجل من إخبارك بها ..

احترق خداي.. وهمست

– ..لا خجل بين الزوجين.. لكنك استهنت كرامتي عندما خدعتني.. لست تثق بي لتضع خيالك بين يدي

- ..ستملكينه ضدي.. قد تبتزيني به ..

لم أرد.. ها هي أعراض مرضه تظهر.. لكني ما عدت في مكان مناسب لشفائه ..لمساعدته.. ففي داخله حواجز تمنعني الوصول.. لقد عرفت أن لي بداخله مربع صغير واضح المعالم، له دور محدد.. لكنني لست زوجة بالمعنى الروحي للكلمة ..حتى الدور الجسدي بات مشوهًا وناقصًا

- ..بل ما يثيرك هو السريّة والخطر.. لا حياتنا معًا

- ..أنا أحبك ..

صرخ كل ما بي "كاذب" لكن لساني صمت.. وأكملت رمي أغراضي في الحقيبة ..وعندها أغلق باب الغرفة وقال بصوت منخفض متآمر

- .إذًا لن تسافر غنى، ستبقى معي كضمان على أنك ستعودين إلي .. لست أنوي أن أعود

- ..لا طبعاً.. ستذهب غنى معي ..

سيبتزني بأحبّ المخلوقات إلي.. لِمَ أتعجب منه؟ فمن يخون مراتٍ لن يمتنع عن الابتزاز.. توقفت عم كنت أفعله.. وهمستُ:

- ..لن أسافر إذًا ..

القانون يسمح له بمنعي من إخراج ابنتي من سوريا دون موافقته.. والقانون نفسه لن يدينه جريمة الخيانة بما أنها لم تحدث تحت سقف الزوجية.. كونها ليست بالجرم المشهود.. القانون يغض الطرف عن حماقات الرجال.. ويخفف الحُكم عن قاتل لو ادّعى بأن ما قام به كان جريمة شرف.. ربما مشكلتي تتمثل في قانون لا في رجل.. في طريقة تفكير لا في فعل.. فبعض ذنب خيانة إيهاب لي يقع على عاتقي.. ما كان يجب أن أدخل تلك السيارة.. ما كان يجب أن أعترض رحلته ودُنيا قبل خمس سنوات ..

همستُ..

-هل كنت تراقبني طيلة هذه السنين؟ لم؟

نظر نحوي دون أن يبدو عازمًا على قول كلمة واحدة، وعد توصل له تحرّكاتي أيضًا.. كما لو بلغت مستوى إدراكٍ جديد لكل ما حولي، ربما بوّاب البناء متواطئ معه كذلك، والبائع في المتجر القريب، جميع معارفي الحاليين عرفتهم بسبب إيهاب.. حياتي كلها تمر تحت مراقبته، وكل شيء

أفعله يجب أن ينال موافقته أولًا.. بدايةً من ثياب أرتديها وانتهاءً بجنس الجنين الذي حملته ..كنت أعيش في قفص كبير، موجود في عقلي، لحياة قررتُ أن يقودها العقل مع أقل قدر من العاطفة

- ..إذًا هل نخرج؟

-لا

-إذًا نأكل في منزلنا.. سأطلب بيتزا ..

خرج نحو المطبخ.. بقيت أحدق في الفراغ في إثره.. إذا كان يراقبني فسوف يعلم إلى أين ذهبت اليوم.. وعندها لا أعلم ما قد يفعله بي وبغنى.. وتردد صدى كلمات تمام في عقلي.. اهربي ودعيني أتولى كل شيء.. لكن كيف لي أن أثق به بعد الذي حدث بيننا؟ أليس هو سبب غير مباشر لارتباطي المتسرع بإيهاب؟ لأهرب من حزني؟ لعامين كان محور عالمي قبل أن يكيل لي الصفعات، الكثير من الصفعات

..

"إن العواصف والثلوج تفني الزهور ولكنها لا تميت بذورها "

جبران خليل جبران

2004

عُدتُ إلى بيروت، أنهيتُ المقال سريعًا، كتبت ما يصلحُ ليقرأه العالم، واحتفظتُ ببقية اعترافاه لنفسي وعند صدور الجريدة أرسلتُ له نسخة واستسلمتُ بعدها للفراغ، حيث تنتهي ساعات العمل سريعًا، وأخذتُ بعدها أتسكع في الطرقاتِ بلا هدف، أعدُ الثواني بانتظار حضور أمي أراقب واجهات المتاجر دون أن أرى أي شيء، ابتعدي، هذا صدى الصمت في داخلي، ابتعدي فالقرب مني خطير ولا علاقة لأسر الثوار حريتي بذلك، بل الأمر مُختلف تمامًا، مُجرد القرب منه خطر على كياني بأكمله، ألم أردد قصته لأشهر في خيالي؟ ألم أندفع للذهاب في المهمة الصحفية بعد أن قرأت اسم تمام بين أفراد البعثة، إن مجرد ذكره يجعلني أتجه بكُليتي نحو الجهة التي تحمل اسمه، جنوب، شمال، شرق، غرب، تمام، ثم أصبحت البوصلة مُعطلة، تشير نحوه فحسب، ما هذا الشعور؟ فضول قاتل؟ شوق مُقلق؟ حاجة مؤلمة؟ تعلقٌ ممرض؟ كلمة من حرفين لا تملك أبجديتي قوة البيان لترتبهم كما يجب؟ كلمة من ثلاث حروف لا تملك أعصابي القوة لإحتمال تهمة معانيها؟ أم مراهقة

متأخرة؟ ذهبتُ لاستقبال أمي في مطار بيروت الدولي، وعندما رأيتها حضنتها بشدة، وللحظة ابتعد شبح اليُتم عني، أحسست بالوحدة تتسرب بعيدًا..

=أمي.. أخيرًا صرنا معًا..

أحاطت وجهي بيديها، تندّت أطراف رموشها بدموع تحاكي دموع سعادتي، وضمتني مرة ثانية، ثم ولّت تلك اللحظة لتمتدح مقالي الحصري بكرمٍ جعلني أحس بأنني عدتُ طفلة، ثم أخذت بعدها تتكلم عن كل شيء، الأمسية التكريمية التي ستُقام لإحياء ذكرى والدي، وتحدثت عن الرحلة التي قامت بها إلى الصين وأنها تفكر بكتابة سيرتها الذاتية، وتحدثت عن الأطباق التي تعلمت طهيها خلال الرحلة والتي ستصنعها لأجلي، ثم أخبرتني أن تمام سيقيم أمسية شعرية في تونس وأنها ستذهب لرؤيته هناك، وأني يجب أن أرافقها فتلك فُرصة لزيارة تونس ومساندة تمام، فهل أخبرها بأنه أمرني بالابتعاد؟ وأخذت تسأل عن تفاصيل رحلتي إلى افريقيا، سألتني الكثير من الأسئلة، كانت ترى الحياة من خلال عدسة الكاتب بداخلها، تهتم بالتفاصيل والدّوافع

وردّات الفعل والمشاعر والأحاسيس، تنهك شخصيات كُتبها حتى يأتوها طائعين، ثم أخبرتني أنها التقت زوجها الثاني عبدالله خلال سهرة في السفارة عن طريق تمام، الذي كان مُرافقها يومها، كان ذلك بعد أربعة أعوام من طلاقها، وعدتُ أحس بنقمة تجاه تمام شعور آخر أحس به تجاه ذلك الرجل، ثم قالت لي بأنها تزوجت عبد الله في حين فسخ تمام خطوبته من ابنة عبد الله، أي أنه حماه، علّقت باختصار:

-إذًا فقد ارتبط من قبل؟

-مرتين مسجلتين رسميًا.. فقد تزوج فتاتًا فرنسية تدعى بريجيت خلال دراسته هناك، لكنها لم تحتمل نمط الحياة الشرقي عندما عادا للعيش في الخليج، فتركته..

كيف يمكن لفتاة أن تترك رجلًا كتمام؟

-كما ترين فإن تجاربه هي ما جعلت منه الرجل الذي هو عليه الآن..

زاد شعوري بالحنق تجاه تمام، فليبتعد هو، فهو من عاش العمر عمرين

وثلاثة، المنافق..

-أمي، لا تذهبي، لنقضي الوقت معًا هنا بدل أن نضيعه في الطائرة وتعب السفر والتنقلات.

عانقتني وقبلتني من قمة رأسي كما كانت تفعل عندما كنت طفلة.

-لا تقلقي فعبد الله سيسافر إلى إنكلترا مم سيسمح لي بأن أمدد زيارتي لحين عودته إلى السعودية.

وهكذا وعندما قابلتُ وأمي تمام في كواليس المسرح حيث سيلقي شعره بقيت بعيدة عنه، أرمق المكان حيث يقف هو بحذر دون أن أنظر مباشرة إليه، كيلا يغيب عن نظري، فأخطر عدو هو ذاك الذي لا تراه، الذي يمكن أن تقع ضحية المفاجأة في هجومه.. الحب حرب غيرُ مُعلنة، وبالتالي عليّ أن أعامله كخصم أحاربه بكل أساليب الرغبة التي ستزرع به خيال الإستسلام، وذاك الخيال هو قوة المُحب لينتصر على محبوبه من الداخل ..

راقبتُ أمي تبتعد عنه لتُحيي شاعرًا آخر فبقي تمام وحيدًا، لم أره ولكنني أحسست به ينظر إلي ، عيناه تشعلان طريقًا من نار أحرق

خططي كلها.. نفيته من مجال نظري تمامًا، وأخذت أنسحب ناسية أهم قاعدة في الحرب، فالعدو سيلحق بك حيث تهرب، ليؤكد هزيمتك الساحقة، ابتسمت موقنة أن انتصاره علي هو في حقيقته هزيمة.. تواريت بين الجموع، أبتعدُ كما أُمرت، وصلتُ باب الخروج بصعوبة كدت أزفر أنفاسي بارتياح لكنه يقف أمامي.. نظرت نحو القاعة بارتباك وعدتُ أنظر نحوه، كان يتحرك كشبح دون صوت، تقع فريسته في قبضته دون جهد، يوهمها بأنها أتت إليه، تبتغي مقتلها، قال ببطء وهو يضع يديه في جيبي بنطاله:

-ها قد تقابلنا من جديد..

-أمي حملتني على الحضور، حاولت أن أبقى بعيدة..

أجابني بسرعة :

-إذًا فأنت أكثر تصميمًا وتملكين إرادة أقوى من إرادتي.

ها هو يتلاعب بالكلام من جديد، لكنني أعرف معلوماتٍ أكثر عنه هذه المرة، ما يكفي لأبقى قوية فلا أخضع لسلطان بيانه، فالمعرفة قوة.

-توقف عن التلاعب بالألفاظ حالًا، هل تخلطني بمعجباتك الكثيرات اللذين يرونك مُنزهًّا عن الغلط؟

-ألستِ إحدى معجبيّ؟ رد مُبتسمًا..

اشتعل الدم في عروقي وأحسست بشعيرات جسدي تنتصب.. كأن كل شيء تلوّن بالأحمر..

-لا، هل يزعجك هذا؟ هل يجب أن تقع كل فتاة تقابلها في حبائلك؟

أخذ صوتي يجتذب النظرات نحونا، فابتسم بتسلية وهمس:

-ما هذه الاتهامات؟ هل تهاجمينني لتدافعي عن نفسك؟ وكل هذا الحقد في وجهك الجميل موجّه نحوي، ما مصدره؟

همستُ: بسببك مات احتمال عودتها لأبي، أنت كالأفعى التي بثّت سمومها في أذن أمي لتخرجنا من الجنة.

زال كل أثر للابتسام عن شفتيه واكتسى وجهه جمود تام فيم توتر فكّه..

=تمام، يجب أن تذهب نحو المسرح، شارة البدء ستنطلق خلال دقائق..

=قادم

رد للرجل دون النظر نحوه وبقي يُحدق في عيني ثم همس من بين أسنانه:

=لا تجرئي على الهرب بعد الأمسية، سأجدك ولو كنتِ في كوكب آخر، فهذا.. الحديث لم ينتهِ.

..

انتهت الأمسية الشعرية، بقيت في مكاني أمام المسرح، لا قدرة لي على الحركة، لا أعلم إلى أين أهرب من نفسي، مم أثقلتُ به قلبي، كما كنتُ في بلد أزوره لأول مرة، والخروج وحدي ليلًا بات يخيفني بعد تجربتين مريرتين، محاولة الاعتداء التي حدثت في بيروت وأسري في افريقيا، وقد أنقذني تمام في المرتين ولا شيء يستحق أن أصبح مدينة له من جديد، يكفي ما أدين له به، حياتي مرتين، وعملي، بقيت أمي بجانبي خلال الأمسية، وعندما انتهى كل شيء سألتني دون مقدمات:

=هل يحدث بينكما ما يجب أن أعرفه؟

نظرتُ في عيني أمي دون أن أتبين ما تقصده وقد كان الظلام مُسيطرًا فقلتُ ببطء:

=لا شيء يحدث بيننا، أنتِ التي أرادت أن نحضر أمسيته.

=لقد نظر إليكِ عدة مرّاتٍ خلال الأمسية كأنك الفتاة الوحيدة في القاعة ، كأنك الوحيدة التي كُتب الشعر لأجلها..

=الشعراء يكتبون لأجل أنثى واحدة، وهي الأبجدية..

=احذري يا ملاذ، تمام صديق وفي، وابن مُخلص، لكنه رجلٌ شديد التعقيد، صوفيٌ زاهد أحيانًا ومُغامرٌ جامح في أوقاتٍ أُخرى، وصيّادٌ على الدوام، وأنتِ لستِ فتاةَ كهف ستجلس طويلًا في العزلة تنتظر أن يعود لرشده ويأوي إليها ليومٍ في السنة ويغيب باقي الأيام، إنه رجلٌ مؤذٍ وإن شعر بالخطر فسيحاربك حتى الموت، لقد عاش في أوروبا، ولكنه عربيٌ خائب الأمل، عنده حبيبة واحدة وهي الحرية وقد ماتت منذ قديم الزمان، لا يمكنكِ أن تنافسيها، فهو يبحث عنها ويطلب وُدها فحسب.

=إني أحاول الابتعاد عنه، وكدتُ أنجح لو لم أرافقك

كان احتجاجي ضعيفًا وقد استحال علي أن أخفي فرحي بعلمي أنه كان فعلًا ينظر نحوي دونًا عن العالمين، ولم تكن مجرد أوهام فتاة

عشرينية وهكذا وعندما أتى نحونا ليسأل أمي عن رأيها فيم ألقاه من شعر أخذتُ أنظر إليه بابتسامة تُزين قلبي وتموت خجلًا قبل أن تصل شفتي، وسألني عندما أصبحنا للحظة وحدنا: =إذًا أنا أفعى؟ هذا ما تظنين؟

عادت أمي فلم أُجبه، حرق الإحراج خديّ، وعندما سنحت له فرصة مخاطبتي مباشرة خلال الأمسية قال:

=بل إني قطعتُ صلتي به بعد ارتباطه بأمك..

همستُ: =ليس لأنك فسخت خطوبتك من ابنته؟

اتسعت عيناه واستحال الحديث بيننا مُجددًا وقد اقترب أصدقاؤه لتهنئته فابتعدتُ نحو الطاولة لأحضر شيئًا لآكله وقد شعرت بجوع كبير فجأة، أحسست بالحر والبرد معًا، التعقل والجنون، بالاندفاع والتقهقر، وقال عندما اقترب من جديد: =هي من فسخت الخطوبة، قالت بأنها لن تتزوج رجلًا لا يُحبها.

سألته: =لم خطبتها إن كنت لا تُحبها؟

ضحك ساخرًا: = هل تعلمين كم تبدين ساذجة بسؤالك ذاك؟ الرجال يتزوجون لمئة سبب وسبب، ومن بين كل مئة رجل، هناك رجل واحد يتزوج لأجل الحب، أما البقية يتوهمون.

همستُ: =ولم ستتزوج يومًا؟

=لهزم وحش الوحدة وحسب، وستكون صديقةٌ ما، ونكون متفقين على أن الحب كالموت يحدُثُ مرة واحدة، قد يحدث فجأة على غير استعداد منّا فنفوته، وقد يحدث على سهو منه فيفوتنا، وقد لا ندركه في المحطة الصحيحة قط، لكننا سنبقى على قائمة الانتظار، ننتقل من محطة لأخرى مُحاولين أن نلمح طيفه ليبث فينا الحياة دون أن نكون حمقى لنظن أنه سيحط رحاله عندنا، فذلك الشعور حلوٌ وقاتل، تمامًا كالسراب.

هذا الاعتراف منه كان يجب أن يُبعدني، لكنه على العكس، رمى بي بين يديه، جعله يحتل باحة الشعور في عقلي وأصبح وحده يثير في قلبي وجسدي نبضاتٍ لم أكن أدري بوجودها وأصبحتُ طوع يديه، كذلك

الحب يزرع بك شعورًا بأنك قادر وبشعورك الكبير وحده أن تُغير الماضي، وأن تجعل محبوبك أسعد إنسان

==

عندما أعلن تمام عن مكان أمسيته المقبلة في الدار البيضاء بالمغرب انتظرت اتصالًا من أمي تخبرني لأرافقها مجددًا، لكنها لم تتصل، فاتصلت بها وسألتها عن مخططها للفترة المقبلة فقالت بأنها ستبقى في المملكة مع زوجها خلال شهر رمضان، وقد باتت تميل للالتزام الديني، وقالت بأنها تتوقع أن أقضي عيد الفطر معها، أغلقت السماعة، وزفرت أنفاسًا حارّة كتنين، رن جرس الهاتف من جديد، رفعت السماعة وأجبت ببطء، سمعتُ صوت تمام، تلعثمتُ واحترق خداي كأنه يراني، دعاني إلى الأمسية بنفسه، وأرسل بطاقة الدعوة عبر البريد ومعها بطاقة طائرة لأجل رحلتي الذهاب والعودة، ودون تردد ألغيت ارتباطاتي المُسبقة كلها، وأخذت إجازة دون راتب من العمل وطرتُ إليه، شكرتُه وجهًا لوجه، بقينا معًا طيلة الوقت ثم عدنا معًا إلى بيروت، صار يخترع

أعذارًا لنبقى معًا وكنتُ أدعه يفعل ذلك، صِرنا نتحرك معًا كشخص واحد، وهكذا وعندما حل عيد الفطر رافقني خلال السفر وزرنا أمي معًا، رمقتني بحدة، وبدت نظراتها قاسية وعندما صرنا وحدنا همست لي: (ستندمين) وعلمت عندها أني سأندم بالفعل، لكن المشاعر أصبحت داخلي كطوفانٍ لم يُبقِ على أي شيء سوى تمام، لم أبق وحدي معه قط، كنتُ أعلم أن البقاء معه وحيدة سيشعل نارًا يستحيل إطفاؤها، كنتُ أُبقي مسافة أمانٍ بيننا، أُحيط نفسي بزجاج غير مرئي يمنعه من الاقتراب، فلو اقترب مني، لو لمسني، قد أذوب بين يديه، ولن أعود كما كنتُ قط.

جعلني حبه أعرف كل شيء بطريقة عظيمة، الإله.. الوطن.. معنى الحياة وغايتها..

خسرتُ عملي بسبب الإجازات المتكررة، أخبرتُ تمام بذلك وأنا أبكي، عملي هام بالنسبة لي رغم انغماري الكُلي بعالم تمام، الحُب ضياعٌ في عالم المحبوب، أن تهمك سعادته أكثر من أي شيء آخر، وأن تُلبي نداءاته مهما كانت، متى كانت وأينما كانت، فتمنحه نداء الشوق عندما يخيفه

قُربك، وتمنحه نداء الهمس عندما تصم استغاثات القلب أذنيه، أن تكون الصديق والرفيق و.. ، أن تتأرجح حوله بين القُرب الحارق والبُعد الخانق..

ساعدني تمام للحصول على عملٍ جديد، وسمحتُ له أن يستخدم اسمه لمساعدتي في حين رفضتُ ذلك من والديّ، لكن للقلب استثناءات لا يعلمها أحد، ثم صرخ ماضيه به، حين وصله نبأ انتحار خطيبته السابقة بتناولها جرعة كبيرة من العقاقير والأدوية، فاستنفر كيانه بأكمله، وعندما حاولت تهدئته جنّ جنونه أكثر، ثم نطقت كلمة هدمت اتزانه كله.. أحبك.. كيف نطقتها؟ نظر نحوي بعينين مُتسعتين كما لو أني لكمتُه في معدته أو أطلقت الوحش الكامن فيه..

=أي حبٍ هذا؟ هل كُنتِ تتوهّمين ما بيننا علاقة رومنسية؟ إني أُشفق عليكِ وحسب، أو على نفسي من وحدتي تلك، وماذا بعد هذا الحُب؟ أتظنين أني سأتزوجك؟ هل تظنين أني ساذج؟ أعلم أن الأنثى التي تتخلى عن كل شيء باسم الحب.. عملها.. علاقتها المتزنة مع عائلتها..

ستتخلى عن الحُب أيضًا، فأي شيء يدفع فتاةً للحاق بشاب في أدغال افريقيا؟ المجون أم الانحلال؟ أم كلاهما؟

=ما الذي تقوله؟ كيف تُفكر بي هكذا؟ (خرجت الكلمات مُختنقة مني)

=أضع حدًا لجنونك هذا! عليكِ أن تستيقظي، خذي ما حدث بيننا على سبيل التجربة، واجتازيه، لا تحبيني بحق الإله، ماذا ينفعني حُبك؟ هل تظنين أني يمكن لي الثقة بك بعد أن رأيت كم ستجرفك عواطفك؟ ماذا لو أحببتِ يومًا رجلًا آخر؟ ستتخلين عن كل شيء وتتبعين قلبك من جديد؟ ما الذي تريدينه مني إذًا؟ لو كُنتُ أريد الزواج بكِ لطلبتُ يدك من أمك مُذ قابلتك أول مرة..

=لا أريد منك أي شيء.. (همست بصوتِ تكسر على شفتي كأمواج مُنهكة بعد عاصفة عاتية)

=كل ما يُمكن أن تكونيه يومًا هو عشيقة فهل هذا ما تريدين؟

أخرستني الصدمة، صفعتني مقادير النفاق في كلماته، فالرجل الذي تزوج فتاةً فرنسية بعد أن أقام علاقةً معها وأخبرني بأنه لم يكن الأول في

حياتها، لا جسديًا ولا شعوريًا، هو نفسُه الرجل الذي يتهمني بالانحلال الأخلاقي لأني أحببته..

الرجل الذي خطب فتاةً لا يربطه بها أي شعور سوى المصالح والتي حاولت أن تقتل نفسها بسببه ينعتني بأني قد اتركه لو جف نبع الحب في قلبي، كأنني أحببتُ شعور الحب، لا الرجل..

الرجل الذي يكتب عن الحب الكثير.. الكثير.. شعرًا ونثرًا، سيبصق في وجه هذا الحب لو قابله في الطريق وأكمل: =بأي وجه سأقابل عائلتي عندما أجرّ فتاةً تحمل قلبها في عينيها ونبضها على شفتيها لأخبرهم بأني سأتزوجها؟ هل تحسبين أمي توافق على زواج مُشابه؟ هل تظنين والدي سيفرح بي عندما يعلم بأنني الأبله الذي سيتزوج فتاةً تنطق بكلمة أحبك لشابٍ لا يربطها به أي رابط شرعي؟

=كفى..

أيقنت بأن جريمتي نكراء، الحُب في بلادٍ لا تعرف الكرامة جريمة تفوق جريمة قتل النفس، يمكنه أن يهبني كل شيء كعشيقة، لكنه لن يتزوج بي قط، لو كنت فتاة هوىً.. أوقعته في المصيدة لوجب عليه الزواج بي

درءًا لفضيحته، لكني فتاةٌ وقعت في الهوى، وتلك جريمة لا يغفرها قانون الرجال، فأنّى له أن يثق بأنّه لقّح الحُب الذي تحملينه في القلب؟ رُبما لقّحه رجلٌ آخر، فهو لن يعترف ببكارة المشاعر التي فضّها ولا يُمكن تحليل الحمض النووي للحب الوليد بقلبك ليثق بأنه شريكك في جريمتك تلك، جريمة الحب، خيانتك لنفسك..

..

أعدتُ له منديله مكويًا ونظيفًا، ولم أرد عليه بكلمة واحدة، قد نطقتُ باعتراف الحب، وأي إهانة قد أنطقها في وجهه ستكون إهانة للحُب، لقد وثق بي ليخبرني أسرار حياته، ولن أخون الثقة، فكل ما بوسعي أن أفعله هو التصرف كمُحبة، إكرامًا للحب فقط، غادرتُه بصمتٍ، سرتُ مُبتعدة عنه، أويتُ لغرفتي وبكيتُ لثلاثة أيامٍ متواصلة لم أكلم خلالها أي أحد، حتى أصبتُ بالجفاف، كان ذلك غريبًا وقد أحسست بكل ما حولي قد تبلل، ما عُدتُ أكترث للعمل، ذهبتُ إلى أمي، لمحت حزني دون كلمات، ضمتني وحسب وأخذتُ أبكي من جديد، لقد أخبرتني بأني سأندم، عندما تخبرنا الأم بأمر، فهو سيحدث غالبًا، أخذتني لزيارة

مكة، لأداء عُمرة، وعندما قابلتُ الكعبة لأول مرة تدفّق منّي دمعٌ من نوع آخر، دمعٌ رواني بدل أن يسبب لي الجفاف، لقد زرع الإله حُب ذاك الرجل لسبب وهو قادر على اقتلاعه من قلبي، أخذتُ أطفو حول الكعبة على أجنحة شوقٍ من عالمٍ آخر، شوقي لقلبٍ دون أوجاع، لعشقٍ يخص الإله دون أي أحد، ذاك كان أملًا جديدًا والأمل يهزم كل الثغور التي يمكن أن يتسلل عبرها الشقاء، أخذتُ أنسى كل شيء عدا اللحظة الحاضرة، لن أخاف من غدٍ دون تمام، سأغترف من نبع الرضا بالقدر حتى الإشباع، بالتواضع للحزن بدل الترفّع عنه، فالحزن يهوى القاع ويهجرنا إذا سرقنا منه ذاك القاع وسكناه، صحبتني أمي بعدها إلى البحر الأحمر، هناك نثرتُ الورود على رماد الحب الذي أحرقته كلمات تمام، وصار الحُب لون الحداد بدل أن يكون لون الحياة، وحين يتجدد الحزن في قلبي، أزهد بقلبي كله، أفقد ذاكرة النبض، أعلم بأني لن أنسَ الدرس ولكن يجب أن أخالف القواعد وأُنكر فضل المُعلم هذه المرة..

ألغيت كل الطرق التي تُمكّن تمام من الإتصال بي رغم شكّي بأنه قد يتّصل، نقلتُ مكان إقامتي.. تركتُ العمل.. غيّرت رقم هاتفي..

اتصل بأمي فاخبرته بأنها لا تعرف مكاني، ولم تسأله عن سبب اتصاله، قطعت صلتها به كما فعلتُ وهكذا صارت رغبتي بنسيان القصة دونًا عن العبرة همي الأكبر، وبذلتُ في سبيل ذلك النسيان كل شيء حتى القدرة على النسيان، ولو أضطرني ذلك للتضحية ببعض معالم إنسانيتي، النتيجة كانت تستحق، صممتُ سمعي عن صوت المشاعر كُليًا، والتفتّ لصوت التعقل وحده، وعندها قابلتُ إيهاب..

..

آهٍ لحوادث الحب، كأنما هي تقع لتغير من الحياة في أيام قليلة مايغير العمر الممتد في سنوات متطاولة"

مصطفى الرافعي.

الحاضر

هل كان كل ما حدث تجربة سيئة؟ كل تلك المشاعر؟ صدفة تتبعها أخرى، خيبة وراء خيبة، سعي لاهث وراء سعادة.. هل كانت مجرد أوهام؟ خيالات رسمتها قصص تبدو خارجة من كتب ألف ليلة وليلة.. لكنني كنت هناك.. سمعت اعترافاته، بادلته النظرات.. هل فسرتُ كل شيء بشكل خاطئ؟ إذًا لم عاد الآن؟ هل اخترت أيًا من هذا أم أنه.. قدر.. نصيب.. كيف تتسلل الأحداث إلى حياتنا؟ من أي ثغراتٍ يدخل الأشخاص.. كيف إذًا نكون متأكدين من أي شيء؟ فها قد جربت الأمرين ..حياة يلعب الحدس فيها دورًا هاما، وتلعب فيها المشاعر الدور الأساسي ..وانتهت بمأساة.. ربما لا تُقارن بمأساة هذا العالم لكنها مؤلمة بالنسبة لي، وحياتي الآن مبنية على الروتين والنظام.. يقودها العقل.. والعادة.. فيها حب هادئ.. ولكنها تحوّلت لكارثة أيضا.. فأين الخطأ.. نظرت نحو السماء ..هطلت مني دمعة.. لقد بات لدي ما اخسره، لو حدث شيء لابنتي.. وقفت بسرعة فاندفع الدم نحو رأسي وشعرت بدوار، سأقاتل.. هناك أقدار في الحياة، لا مهرب منها،

كالموت والعمل، كالولادة والملل.. لكن لعب دور الضحية ليس أحدها ..سأحمي نفسي وابنتي.. بات وجودي مهمًا لوجودٍ آخر.. وهل كنت أسأل نفسي عن السبب الذي نحت حياتي لأجله هذا المنحى الكارثي؟ يكفيني أني كنت سببًا لعبور غنى للحياة.. كان عبورًا صعبًا.. إعجازيًا.. يستحق كل نبضة ألم ..سمعت صوت رنين جرس الباب.. لا بد أنه عامل توصيل الطعام.. رنّ الجرس مرة ثانية.. نهضتُ لأفتح الباب.. قابلني شاب في مقتبل العمر .. يحمل علب طعام

– ..هل هذا منزل سالم الذهبي؟

–بل في الطابق الثالث ..

وهممت بإغلاق الباب فسارع الشاب لحشر قدمه.. وهو يمد يده بمظروف ابيض صغير.. وهمس

– ..من تمام ..

اتسعت عيني ودون تفكير دسست الظرف داخل ثيابي وانسحب الشاب مُسرعًا فأغلقت الباب

– ..من كان هذا؟

-عامل توصيل، سأل عن منزل الجيران..

ربما يجب أن نضع بطاقة تحمل اسمك على الباب ..واتجهت نحو الحمام.. أحكمت اغلاق الباب وفتحت الظرف.. به هاتف صغير مُطفأ ..قُمت بتشغيله.. وبعد دقيقة أخذت الشاشة تومض عارضةً رقمًا غريبًا.. قبلتُ الاتصال

- ..لا تنطقي أي كلمة.. احتفظي بهذا الهاتف حتى ينفذ شحن بطاريته ثم تخلصي منه بشكل كلي، أبقه معك دائمًا.. في حال تعرضك للخطر أرسلي الرمز الموجود في الورقة السوداء التي وضعتها تحت ماسحة الزجاج بسيارتك للرقم الموجود في خيار الاتصال السريع رقم ثلاثة.. لن أتركك وحق من خلق العسل من عينيك ..ثم أغلق الخط ..لم تمسكني لتتركني.. أخفيت الهاتف الصغير وسمعت رنين جرس الباب من جديد ..خرجت من الحمام وشاهدتُ إيهاب يتجه لفتحه.. فانسللتُ نحو غرفة النوم ..ارتديت سترة واسعة.. ونظرتُ لعيني في المرآة.. عسل مُرٌ يا تمام.. ملامحي سكنت قصائدك يومًا.. وملامحك أغرقتني دمعًا.. ناداني إيهاب لنأكل ..جلست إلى مائدته.. يفصل بيننا

الطعام السريع.. الخيانة السريعة.. السر سريع الذوبان.. حبيبته المفقودة التي لا يعبأ بها.. والتجربة السريعة.. صبّ المشروب الغازي في كأسين.. وتناثرت الفقاعات منهما.. كانفجارات صغيرة.. وكل ما أراه هو القسم الفارغ من الكأس.. في أعلاه.. تناولت جرعة وغضنتُ وجهي لطعمه الحارق.. وتناول هو قطعة من القرص الدائري

– ..هل أصبحنا عاجزين عن الحديث مع بعضنا؟

–لا كلمات عندي

– .حدثيني عن تمام

– ..ذاك ماضٍ بعيد.. منتهي

– ..لم يلاحقك إذًا؟

–لو لم تُريني تلك الصور لما علمت أنه كان يُلاحقني

– ..أتحبينه؟

– ..لا

– .هل أحببته يومًا ؟

–لقد انقطعت علاقتي به قبل لقاءنا

- ..هل نال قُربك؟

-لا هو ولا غيره

- ..حظك سيء من الرجال يا حبيبتي ..

دمعت عيني

- ..دعنا نذهب.. غنى وأنا.. وسأنسى كل شيء.. قد أسامحك حتى.. أرجوك ..

مد يده ببقية قطعته نحو فمي.. وأبقيته مغلقًا.. فحشر القطعة أكثر.. تناولت قضمة.. علقت بحلقي.. مع اليأس.. وانهمرت دموعي.. اللجوء لاستدرار عطفه لن ينفع، فلو كان به ذرة رحمة أو كرامة لما فعل ما يفعل.. فلم ما زلت أبكي؟ تجرّع كأسه كاملًا.. وقف وذهب نحو مكتبه وأقفل الباب ..كنت أجلسُ على قنبلة موقوتة.. سينفجر حولي كل شيء قريبًا.. ويحيل حياتي لأشلاء .اتجهتُ نحو غرفة النوم.. جلستُ فوق السرير.. لِمَ لم يعلمونا تقنيات تفكيك القنابل الموقوتة في المدرسة، أو تقنيات تلافي الألغام.. أو تقنيات تفكيك السلاح..

وتفادي القناص وهزم العدو.. فهذه البلاد لا تعرف طعم السلام .. الحرب سنّتها.. متى نسيت هذه الحقيقة وركنت للعدو؟ ..

لكن ماذا لو كان ذلك كله محض افتراء؟ كأن يرتب تمام ذلك كله بناءً على صور التقطها لإيهاب في لحظات ضعف.. لا يمكن الثقة بسياسي.. أبدًا.. ربما يدبر انتقامًا من عبدة تجرأت وكسرت قيد تعلقها به.. ثارت على تعاليه.. تركته قبل أن يرميها من حياته.. قبل أن ينتهي منها.. فللحب عضّة لا تُمحى آثارها ..بعض الحب يصيب بالمرض، ولا شفاء منه، فالأطباء عبيد على مذابح العلم ..والعلم لا يكترث بالحب، وربما لا يعترف به، وهكذا لم يخترع دواءً للشفاء من نهشه للروح.. ربما تمام خطف دنيا ولفق قصة البيت وتلك الوثائق والصور.. لا بد من إثبات أخير.. أخرجت الورقة التي دونت عليها رقم الهاتف وعنوان البيت في الريف، دخلت الحمام مجددًا وأقفلتُ الباب خلفي وجلست على حافة حوض الاستحمام.. أدخلت الرقم ولكن إصبعي توقفت قبل ضغط زر الاتصال.. لمسة واحدة تهدم حصن الشك الأخير.. تهزم بقية يقيني، تقتل آخر أثر للحياة من يقيني ..تشنّج إبهامي.. ارتجف، تداعى على

الزر.. جاري الاتصال.. رفعته ليلاقي سمعي، رنّة.. اثنتين.. ثم طعنني صوته في أذني:

- ..من؟

بل من أنت يا إيهاب؟ مخلوق من طين أم خيانة؟ كم تتكلف من جهد ومال وخطط وأسرار وخبايا لتمارس طقوسًا للغدر؟ لكنني خنت نفسي يومًا، فما الذي قد يمنع أقرب إنسان مني أن يغدر؟ لنشرب نخب انقضاء العهد بيننا.. ولننثر مبيد الأعشاب ليقتل براعم الأمل.. فقد بات ألمًا.. حدثت به طفرة وصار عشب ضارًّ.. أغلقت الهاتف وخبأته من جديد ..

هناك فرصة هرب واحدة.. يجب أن تنجح.. لا مكان للفشل.. هيا يا غنى ساعديني ..يجب أن أحضر كل شيء وأنتظر بصبر وصول اللحظة المناسبة.. ذهبت لخزانة الأدوية نظرتُ عبرها.. عقار منوّم للأطفال.. ما به يكفي.. ان لم تفعل خير ..فالنوم خير ..حضّرت الشاي وجلست أشربه.. ليس الشاي، بل محلول الهدوء والبرود.. وضعت الحلاوة فيه وأخذت أحركه ببطء ليرتطم معدن الملعقة بزجاج الكأس.. تحدُث

دوّامة في السائل الرائق.. يصدرُ الصوتُ.. صوت الصباح يمكن أن يعدل مزاج الليلة الحالكة هذه.. وقد تنقلب موازين الحكايات على غفلة من راويها وكما أملتُ خرج إيهاب من مكتبه.. رآني جالسةً بهدوء، كحملٍ يتربص بالذئب، يختبئ منه بدل أن يهرب أمامه

- ..عليك أن تعدني بألا تكرر فعلاتك تلك ..

جلس في المقعد المجاور، لمحته يراقبني بينما كنت أنظر خارج النافذة..

قال بصوت غير ثابت

- ..أعدك ..

قرّبت منه كوب الشاي.. ارتشف منه قطرات.. جيد.. إنه يفضل الشاي على القهوة.. بينما أفضل القهوة، أليست هذه إشارة ثانية على أننا غير متوافقين؟ فالشاي سامٌ عندما نتناوله مع الشخص الخاطئ لكن القهوة قاتلة.. رشفتُ من كأسي.. وتجرّع كوبه مرةً واحدة.. وصبّ آخر.. وتجرّعه.. بينما لامست شفتي بكأسي ثانيةً.. استند للخلف.. نهضتُ وجلست بجانبه.. ذبل رأسي نحو صدره.. وأخذت ألامس

أضلاع القفص الصدري.. كانت كاملة.. لا أنقُصها.. فقد كنت حبيسة عنده، لا قطعة منه ..سمعت دقّات قلبه تتباطأ

- ..هل وضعت لي سُمًا؟

نظرتُ في عينيه

- ..لن يقتلك السّم يا حبيبي.. فأنت مصدره ..

لكنه غطّ.. غاب في عالم الموت الصغير.. نظرتُ إلى وجهه.. صباح اليوم كنت عاشقة.. وغاب العشق في المساء.. هل يمكن أن أعوّل على شعور يتقلّب كالليل والنّهار؟ نهضّت.. ابتعدتُ خطوتين.. ثم عدتُ أرمي بطانية فوق الجسد المرتخي.. ورميت بقية الشاي في تربة النبتة الخضراء.. وصنعتُ شايًا جديدًا.. ثم تسللت نحو غرفة غنى، كانت نائمة.. تحسست جبينها الصغير.. لا اثر للحرارة، أخذت أرتب أغراضها بسرعة.. الضّرورية فقط، وضعتُ الحقيبة بجانب الباب وذهبتُ نحو غرفة النوم.. ألقيتُ نظرةً عليه في طريقي.. دمعت عيناي.. أزحت شعوري بأكمله عن الطريق وذهبت نحو الخزانة.. حملت أدلة خيانته كلها.. كم أثقلتني.. الوثائق اللازمة للسفر ما تزال في

حوزته.. وضعت كل ما أملك من مال في الحقيبة ..وخرجتُ.. دخلت غرفة غنى.. أخرجت هاتف تمام.. ثلاث عشرة مكالمة فائتة ..الرقم غير ظاهر.. لا وقت لأنتظر.. حملت حقيبة غنى.. ثم حملتُها بين ذراعي وانطلقت.. خرجت من المنزل بسرعة ونزلت الدرج واتجهت نحو مخرج البناء ..سأكون حرّة قريبًا ..ومض الهاتف في يدي.. رقم مجهول.. قبلت الاتصال بصعوبة وأنا أحاول موازنة الحقيبتين بينما أضم ابنتي لقلبي المتخبط كعصفور بري في قفص الترويض

- ..لا تتقدمي خطوةً أخرى يا ملاذ

- ..كيف عرفت؟

-لقد أعطى زوجك أوامره للعيون التي تراقبك دائمًا لأن يقتلوك في حال خروجك من البيت دونه.. إننا نتتبع اتصالات الرقم الذي طلبته عبر هذا الهاتف سابقًا خلال المساء ..

أخذت ركبتاي ترتجفان.. لم أفهم.. إنني في حرب مفتوحة بالفعل.. مع عدوٍ أجهله كما أعرفه

- ..ما الذي سيمنعه من قتلي لو عدتُ؟

-أنت وسيلته للهرب فلا تخافي

- ..تلك نصيحة متأخرة، إنني خائفة منذ زمن.. عليك أن تعيش مع العدو وبعدها أخبرني أنك لا تخاف- ..ملاذ

- ..فقط أنقذ غنى مهما كان الثمن.. لو حدث لي أي شيء أوصلها لوالدتي

- ..لن يحدث لك أي شيء ..

اختنقت بدموعي.. لقد أقسمت يومًا.. وها قد خنت قسمي

- ..ما كنت لأطلب منك يا تمام لو وجدتّ شخصًا آخر أثق به.. لكن كل من حولي يقفون في صف إيهاب.. فاعلم أن لجوئي إليك يؤلم روحي.. وقد خنتها مرّتين ..فلو رأيتني أحترق لا تطفئ النار.. لكن أوصل غنى للأمان ..

عدت للبيت.. كأرنب تجارب يعلم أنه سيكون ضحية لدرس تشريح في الغد.. لا مهرب هذا المساء.. مددتُ غنى في سريرها وجثمت بجانبها أبكي.. سيقتلني لو تركته.. سيتلاعب بي لو بقيت.. نار تحيط بي من الجهات كلها.. كأنني بت أسكن جحيمًا قبل الممات.. جحيمًا في

الحياة ..مسحت دموعًا لا مكان لهطولها ..أخرجت الوثائق.. وعزمت على دراسة العدو الذي يسكن معي

.. ..

راقبت بغرابة شروق شمس السماء ..حسبت تلك الليلة لن تنتهي.. حسبت الظلام سيبقى حتى أجد حلًا لمشكلتي، حتى أرسم خطة لأحمي ابنتي فالعدو لا يرحم.. لكن الشمس أظهرت ما أخفاه الظلام .. قلة حيلتي، انعدام وسيلتي.. جهلي بالكثير من الأشياء.. ماذا سعني وجود جوازات سفر اسرائيلية لأولئك الفتيات؟ كيف وصلت لذلك البيت؟ كيف عبرت الحدود؟ ماذا تعني زيارات إيهاب لفلسطين.. ما الذي يفعله هناك.. لم لا يخبرني.. لم لا يصحبني.. يعلم كم أبغي الذّهاب.. صور هويات مزورة.. جوازات سفر لغرباء.. تقرير طبي يظهر حمل إحداهن ممن سكنّ في البيت.. اسمها ضحى ..والأغرب من هذا دُنيا.. درج كامل به صور لها.. ووثائق وثياب.. كأنها تسكن هناك.. فأين هي الآن؟ أيقظت غنى وبدّلت ثيابها لتبدو أجمل طفلة.. ولبست ثيابًا مُحكمة، مموهة، لزوم الحرب التي كنت بصدد خوضها،

وأخذت أحضّر القهوة التركية، لأبعد تفكيري عن رقبة زوجي، وفكرة خنقه بيديّ، موته يعني موتي، وهكذا تبقى غنى يتيمة، كان غليان الماء مريحًا بشكل غريب، كأنه يحادثني، يخاطب روح الماء روحي، يهمس لي خطة جريان الماء للأعلى، لأسبح فيه عائدة لمسقط عقلي، لكن يجب الحذر كيلا أنتهي كوجبة في فم الدب، كانت غنى تجلس على كرسيها.. تلعب بطعامها، سمعت صوت خطواته المتهالكة، وهو يترك مسرح جريمتي، عطس مرة بصوت مبالغ فيه، ثم اقترب أكثر، جسدي تحسس للخطر المحدق به

- .رأسي يؤلمني، صداع .

نظرت نحوه، ثم عدت وأكملت عملي

- :صباح النور. ولم أضف

- .لم تركتني أنام هناك؟ لقد التوت رقبتي .

تصاعدت القهوة مرة أخيرة في الدلة وأطفأت النار ثم سألته كأني لم أسمع ما قاله

- :قهوة تركية؟

جلس في اقرب مكان وصل إليه ثم اسند رأسه ليديه

- ..كأن أحدهم قضى الليل يقرع على رأسي كأنه طبل .

وضعتُ فنجانًا أمامه.. نظر إليه ثم إلي وأعاد النظر .أخذت أشرب من الفنجان الصغير كما لو كان فنجاني الأخير

- ..لم نمتُ في الصالون؟

نظرت إليه دون أن أرتب ردًا على كلماته، بينما التلفاز الصغير يبث أخبار الصباح

- ..تنتهي قصة مساعدة رجل الأعمال إيهاب رامي إلى نهاية مأساوية، فالفتاة التي كانت مفقودة، علمنا هذا الصباح أنها ماتت في منزلها جرّاء ما يظهر أنه نزيف حاد ..

اضطرب الفنجان في يد إيهاب، تركه نترًا، ثم شعره بأصابعه فتركت علاماتٍ محراث في حقل

- ..الإعلام مقيت حقًا.. لم ذكروا اسمي؟ أي نوع من التشهير هذا؟ يجب أن أخبرهم ليصححوا الخبر فورًا .لم يفاجئه الخبر.. لم يعنيه حتى.. كل ما يكترث له هي سمعته !

-لكنه صحيح، لقد ماتت بنزيف في منزلها، الصورة واضحة ..

جمّدتُ البث عندما ظهرت صورة دُنيا وقد أخفيت معالم وجهها، تمعنت فيها، كم تتغير ملامح الإنسان بعد موته، لكن الأمر أعمق من ذلك، كأنها شخص مختلف كليًا، استحضرت صورتها في خيالي، إلتقيت بها مرارًا، خلال زياراتي لمكان عمل إيهاب، خلال حفلات الشركة الدورية والفعاليات الترفيهية التي تقام لتوطيد العلاقات والألفة بين الموظفين، الصورة تبدو مختلفة.. كأنها دُنيا، لكن..

- الكاميرا تغير ملامح الشخص بشكلٍ كبير ..

قلتُ ثم نظرت نحو إيهاب وأعدت تشغيل البث

- سأحادث المحامي فورًا لألقن هذه القناة درسًا..

نهض واتجه نحو مكتبه، نظرت حولي، لازالت الصورة التي كشفت الكثير البارحة ملقاة هناك، على الطاولة بجانب الموقد، نهضت ورفعتها.. دققت النظر في وجه دنيا.. شعرها.. نحرها.. رقبتها.. اتسعت عيناي.. الأمر غامض حتمًا، ما الذي حدث ليجعل الفتاة في

الصورة تتغير بهذا الشكل؟ هل هو الموت؟ خروج الروح يحول الجسد من كائن حي إلى كومة لحم في طريقه للتفسخ..

- ماما؟

أوقعت الصورة من يدي بينما استدرت لملاقاة غنى، اقتربت وحملتها بين ذراعي وأجلستُها لأطعمها فطورها، عاد إيهاب وجلس بصمت ..أخذت أطهو البيض و أحضر الخضار بذهن غائب.. وهكذا اخترقت السكين يدي فشهقت بحدة ورميتُها بسرعة وشاهدت الدم ينفر.. خرجت مسرعة كيلا تشاهد غنى منظر يدي .جلست على السرير في غرفتي، أحسست بجسدي حارًا، الجرح أخرجني من صدمة الصباح، أسرعت افتح الحقيبة وبحثت بسرعة عن المزيد من صور دنيا.. وصرت شبه متأكدة بأن الفتاة الميتة بنزيف ورغم شبهها الكبير بدُنيا، لكنها ربما ليست هي .أخفيت الحقيبة من جديد، اتجهت نحو الحمام أتفقد هاتف تمام السري، لا شيء .عدت لأكمل تحضير الفطور.. وعندما أنهيت وضع الأطباق فوق الطاولة نظر إيهاب نحوها بشرود ثم قال بصوتٍ قاطع..

- يجب أن نسافر خارج القطر، سنذهب لبيروت مؤقتًا..

- لماذا؟ ما الذي حدث؟

وقف وخرج من المطبخ دون كلمة، أخذت غنى تحاول الوصول للطعام فقربت طبق البيض منها ولحقت بإيهاب، كان قد بدل ثيابه بتلك السرعة، وأخذ يتحرك بين الغرفة والمكتب يحزم أغراضه..

- إيهاب كلمني.. لم يجب أن نسافر؟

تجاوزني وخرج نحو الصالون.. رأيته يكرع بقية شاي البارحة مرة واحدة ثم يصب ويشرب كوبًا آخر.. وعاد ثم أغلق الحقيبة المفتوحة فوق السرير قال :

-لا وقت لدي لأسئلتك، لك حرية البقاء لو شئت، لكن ابنتي سترافقني حيثما أذهب..

- ماذا؟

حمل الحقيبة وخرج واتجه نحو المطبخ حيث كانت غنى غارقة في الطعام، فوقف بجانبها وأردف:

- إذًا؟ هل ستبقين وحدك أم سترافقينا؟

°°°

بعد ساعةٍ كنا على الطريق بين دمشق وبيروت.. إيهاب يقود سيارة الدفع الرباعي بينما أضم غنى بين ذراعي في المقعد الخلفي وحقائب الأمتعة مرمية بجانبي، وجهلي بما يدور في رأس زوجي يصيبني بالغثيان.. بعد دقائق نجتاز الحدود السورية ونصبح في لبنان، فتّشت حقيبة الأوراق خفية وأخرجت الجسم الصلب وخبأته في الجيب الخلفي لمقعد السيارة، أخذ قلبي يدق بسرعة واشتدت ذراعاي حول غنى التي كانت تتأمل المناظر عبر نافذة السيارة بصمت، كنا مرتبكتين..

- هل ستخبرني لم نهرب بهذا الشكل؟

لم يرد، أدار مذياع السيارة الذي أخذ يبث أغاني تناسب الصباح، لكن ليس صباحي بالتأكيد.. فيما نار تشتعل بصدري وحرب باردة تدور حولي..

- إيهاب، لقد قررت السفر بعد انتشار خبر موت.. دنيا، هل لك علاقة بموتها؟

زاد سرعة السيارة ولم يرد.. قال بعد لحظة:

– هل وضعت مادة منومة في الشاي البارحة؟

شددت ذراعاي حول غنى وقلتُ ببطء:

– لم قد أفعل ذلك؟

–لتهربي.

– ولم بقيتُ إذًا؟ لقد نمت طيلة الليل، كانت تلك فرصة مناسبة للهرب .

لم يرد، فأكملت:

– لم عدت وشربت منه لو ظننت أن به مادة منوّمة؟

–فكرت بأني إن نمت خلال قيادة السيارة فسوف تنقلب السيارة ونموت جميعًا ..

أخرستني كلماته ..إنني في حضرة قاتل محترف.. سيعاقبني على شكوكه بأن يقتلني وغنى، ويموت معنا..

– إيهاب تمهل أرجوك ..

زاد سرعة السيارة.. قال:

– لكنني لم أنم، ربما سامحت خياناتي بالفعل..

- تمهل.. أرجوك ..

ربما لم يقتلني لأنني وسيلته للهرب، لكن سلوكه بات انتحاريًا.. أفعى تأكل خلال اليأس نفسها..كانت عجلات السيارة كأنها تُعذب أعصابي.. تسير فوقها ..تجلدها بإيلام ..وخلال دقائق كُنا عند المعبر الحدودي ..نظر الموظف نحونا وعقد حاجبيه، قلّب بطاقاتنا الشخصية بسرعة وأعطانا الإذن لنكمل الطريق ..أصبحنا رسميًا فوق التراب اللبناني ..احتدم الخوف مع اليأس بداخلي وارتفع لفمي طعم معدني..

- أوقف السيارة ..

لم يستجب وضعت غنى بجانبي واعتصرت كتفه.

- أوقفها، يجب أن أتقيأ ..

أوقفها..فقفزت من السيارة وأخذت أخرج ما بداخلي إلى جانب الطريق.. رأيت إيهاب ينزل ببطء ويقف بجانب السيارة.. فاختبئت وراء شجرة كيلا يراني.. لا زلت أهتم كيف أبدو بعينيه، حمقاء أنا.. انسابت دموعي بعد أن هدأ جيشاني الداخلي .حسبتني تزوجت قبل خمس سنواتٍ أميري من حكايات الجان.. وها أنا مختبئة ممن تبين بأنه

مجرم محترف.. ولكني لا زلت أحس بضعف نحوه.. أتمنى أن يكون هذا كله مجرد كابوس.. وهم سرعان ما يتكشف عن حقيقة أجمل.. لكنني هنا الآن، مع رجل قد يقتلني في لحظة شك، وابنة صغيرة لا تعرف عن الحياة إلا ما تحس به عبري، وما يمكنها سؤالي عنه.. الأسبوع الماضي كُنا في نزهة، عائلة صغيرة سعيدة، والآن ها نحن ذا، هاربون مم لا أعلمه..#

عدت للسيارة، رأيت إيهاب قد أشعل سيجارة وهو يدخنها..

– دعني أحزر، لم تتوقف عن التدخين أيضًا.. تلك أيضا كذبة أخرى ..

نظر إلي..

– لستُ كاملًا.. وأنت كذلك، كلانا لديه عيوب كثيرة، فلنتوقف عن تسجيل النقاط وإحصاءها ريثما تنقشع هذه الغمامة، فلا فوز هنا.

–إذًا لماذا كنت ولا زلت تراقبني؟ تتربص بي؟ تتصيد أخطائي؟

–لست أتربص بك، أما الأخطاء فهي من صنع يديك، الماضي لا يموت، مهما بدا خاليًا من الحياة.

– إذا كنا سنلعب لعبة استحضار الماضي فتلك اللعبة يلعبها إثنان، كما أنه ليس ماضٍ بالنسبة إليك، وقد حصل السنة الفائتة، بينما خاتم زواجنا في يدك، وربما مرارًا خلال الفترة الماضية..

رمى سيجارته ودهسها بقدمه، بدا عليه الجمود، لقد قلتُ الكثير، قلته بثقة، المعلومات قوة، لكن عند قولها في الوقت المناسب وحسب، وهذا ليس الوقت المناسب..

تجنبت نظراته وعدت للسيارة وقلت:

– لن تمانع أن أقود أنا لما تبقى من الطريق .

صعد وجلس بجانبي وانطلقتُ، فتح النافذة رغم برودة الجو وأشعل سيجارة ثانية.

– ما كان يجب أن أعود من أميركا، لأعيش في هذه البلاد، حيث كل شيء يتخلله حنين مقيت لماضٍ يدّعي الجميع أنه كان ذهبيًا.

نظرت نحوه بشكل جانبي ثم عدت أركز اهتمامي على الطريق.

– كل شيء عربي هنا يخنقني، لا أفهم شعورهم بالفخر، يستفزني كرمهم، أمقت أملهم بالأفضل، بالتغيير في المستقبل .

-لكنك عربي .

زفر أنفاسه بحدة وقال :

-ولدت في المكان الخطأ وحسب، وخلفيتي تلك ليست بحال مصدر فخر.

- تظن شعورك بالاغتراب مبرر للخيانة؟

-الأمر لا يتعلق بك، بل بي، عندما أكون مع أخرى لا أهدف لخيانتك، ولا تهمني الفتاة التي أكون معها أصلًا، لكنها تحمل نمط التفكير الغربي في إعدادات عقلها، تعيدني لذلك المكان، حيث كنت حُرًا، خالي التفكير .

-الزواج ليس قيدًا .

-الحياة هنا هي القيد، روتين خانق، مظاهر مبهرجة، خطب طنانة، شعارات رنّانة، لكن الواقع مخزٍ .

-فلم تزوجتني؟ لم لم تعد للولايات المتحدة الأميركية؟ لم بقيت هنا؟

-حسبتك مختلفة، مُتحررة، لا تملكين قيود القومية الحمقاء، فقد سافرت ورأيت العالم، وما عادت تعنيك قيود الشرق .

-أتعلم كم تبدو منفصمًا عن كل الجهات؟ تظن الحضارة مرتبطة بجهة؟ والتحرر هو عدم وجود قيود للعلاقات الإنسانية؟ علاقة مفتوحة تقصد؟ فلم استأت لعلمك بأنه كان لي علاقة فيما مضى؟

-أنت بريئة أكثر مم يجب. ستشعرينني بذنب كبير لو اضطررت لإيذائك، ولكن إن ضربت ذاك المدع في قلبك، فلن يقوى على النهوض .

-أنا زوجتك ..

همستُ، فلامس خدي بإصبعه، جفلتُ، كأني أصبحت بالنسبة له ورقة لعب، أو بيدقًا على رقعة الشطرنج، أخذ يضحك..

- لم يكن حبك ضمن خطتي، لم يكن من المفروض أن تحملي، كنت سأتزوجك لسنة وحسب، حتى عام ألفين وسبعة فقط، ثم ينتهي كل شيء .

ما الذي تتحدث عنه؟ سمعت صوت القداحة وهو يشعل سيجارة أخرى..

– عن النار التي تشتعل في أنحاء الوطن العربي، في تونس ومصر.. ستصل إلى سوريا، لكنها لن تنطفئ، فسورية هي حدود لإسرائيل، ولن تتردد إسرائيل في إحراق كل شيء لتأمين حدودها .

–ما الذي تتحدث عنه؟

–ستعرفين عم قليل، لكن الوقت سيكون قد تأخر، هل حسبت فلسطين هي حلم الإسرائيليين الوحيد؟

–أعلم الحدود التي يحلمون ببلوغها..

– ذلك ليس مجرد شعار، حلمهم السيطرة على كل شبر وطأه اليهود منذ قديم الزمان، كل ما ذكرته الأديان..بلاد الشام ومصر وربما العراق.

– ما علاقة كل هذا بنا؟

–كل عربي يظن ألّا علاقة له بما يدور، ينتظر بطلًا خارقًا ليحرره، ويرفع الظلم عنه، بينما كل إسرائيلي يظنّ أنه المُختار، ويعمل ما بوسعه لنفع قوميته..

– غايته تبرر الوسيلة، ولن يمتنع عن فعل أي شيء ليصلها.

– لهذا كله فإسرائيل مكونة من أشخاص من أنحاء العالم، لا يجمعهم أي شيء، ولا يثقلهم أي ارتباط تاريخي مُسبق، ولا يعنيهم الحنين، يهمهم المستقبل فقط..

– أتظن العرب لا يهمهم مستقبلهم؟

–بل يثقلهم الحنين، يسلّمون بالعبودية وقد تشوّه معناها في عقولهم، فخلطوا العبودية الدينية لتصبح قيدًا، بعد أن كانت أقصى درجة للحرية، لقد وجدوا الكنز ثم عادوا ورموه، تخلصوا من العمل.

– أنت حانق علينا بالفعل..

– بل غير مُكترث، النهاية باتت قريبة، ولولا تمام ذاك لأمكنك رؤية ما سيحدث بعينك، لكنه الشوكة في الخاصرة .

ما عدتُ أفهم أي شيء، لكني أصبحت موقنة بضرورة إيصال غنى إلى مكان آمن، القصة أكبر مني ومنها، وإذا أحسّ إيهاب بأننا عثرة في طريقه فسوف يتخلص منا ببساطة، وصلنا مدينة بيروت، إيهاب أنهى علبة السجائر ورماها من النافذة بينما غنى نائمة وأنا أفكر كيف يمكن أن أهرب ..أوقفت السيارة بجانب البناء حيث توجد شقتنا، كان

مكونًا من ثمانية عشر طابقًا، ونسكن نحن الدور العاشر، حمل إيهاب غنى بين ذراعيه بالإضافة لحقائبه وحملتُ أنا بقية الأمتعة، لحقت به سريعًا، عندما دخلنا الشقة كانت الساعة حوالي الحادية عشرة قبل الظهر، رمى إيهاب الحقائب واختفى في غرفة المكتب، وضعت غطاءًا فوق ابنتي، وجلست بجانبها، أخرجت صورة إيهاب ودُنيا من حقيبتي ودققت النظر جيدًا، هناك علامة ولادة على أسفل خد دنيا، لم تظهر في صور الجثة التي بثها التلفاز، فهل قامت باستئصالها مؤخرًا؟ شعرتُ بالحزن، فمهما فعلت تلك الفتاة فهي لا تستحق أن تموت بتلك الطريقة، أدرتُ جهاز التلفاز لأشتت تركيزي عن سيرك الأفكار المجنونة داخل عقلي، ولاقيت جنونًا أكبر.. كانت الأخبار تداول آخر التطورات في قضية مقتل دُنيا.. التقرير كان صادمًا..

– تبين بعد الفحص الجنائي لجثة المغدورة والأدلة في مسرح الجريمة أنها ليست دُنيا مساعدة رجل الأعمال إيهاب رامي، ولكنها أختها التوأم ضحى.. وأظهرت التحاليل أن النزف كان سببه إجهاض الجنين الذي

كانت تحمله.. بينما الأخت التوأم دُنيا لا تزال مفقودة، والشكوك تحوم حول إيهاب رامي، الذي قال مصادر أمنية بأنه غادر البلاد..

قفزتُ واقفة وأنا أغطي فمي بيدي الاثنتين، لهذا بدت الصورة مختلفة، هل.. هل كان لإيهاب علاقة بالأختين معًا؟ شعرتُ بالغثيان من جديدٍ، استدرت لأخرج من الغرفة، رأيت إيهاب يقف هناك، يبدو عليه الجمود، نظر نحو التلفاز ثم نحوي وقال :

-يجب أن نسافر سريعًا.. لقد حجزت في الرحلة المُقبلة نحو تركيا ..

ضيقت عيني، كأنه رجل آلي..

- هل قتلت ضحى؟

اقترب من التلفاز وأطفأه بسرعة ثم جلس ومسح وجهه بيديه بتعب وقال:

- لا، لقد ماتت بنزيف ..

استدرتُ نحوه وهمست:

- الشكوك تدور حولك، إنهم يعلمون بخروجنا من سوريا.. ما الذي فعلته؟

قفز واقفًا..

– لم أرد قتلها، حدث ذلك بالخطأ..

– كيف استطعت الجلوس هناك ومتابعة الأخبار ببرود وأنت تعلم أنها ليست دُنيا؟

أمسك ذراعي بيده وقال :

–لقد حدث ذلك خطأً، لم يكن من المفترض أن تموت..

– ما الذي كان يفترض حدوثه؟ أن تجهض الجنين دون تعقيدات؟ لم؟ هل كانت حاملًا منك؟

ترك ذراعي واتجه ينظر خارج النافذة حول المنزل وقال :

–يجب أن نسافر صرختُ به

–هل كانت حاملًا منك؟ هل قتلتها لهذا السبب؟

أجفلت غنى في نومها وأخذت تبكي بخوف فضممتها بين ذراعي بينما خرج هاربًا من الغرفة.. رنّت في ذهني كلمات تمام.. الحقيقة بشعة فعلًا.. عادت طفلتي للنوم فنهضت ووضعتها في غرفة هادئة ودخلت

الحمام، غسلت وجهي ورطبت بشرتي بالماء، أخرجت الهاتف الذي أعطانيه تمام، شحن بطاريته يوشك على النفاذ، وبه رسالة نصية :

"حاولي أن تماطلي أمر السفر ما استطعت، فلا يمكنه الهرب بدونكما وقد زودت قوات الأمن بتعليماتٍ عن مكانكما وهي في طريقها إليك فلا تقلقي.. ستكونين بخير أعدك..

كان يجب أن أثق بإيهاب منذ البداية ولكن كيف ذلك؟ فقد كان جرحه في الماضي عميقًا وقاتلًا، قتل ثقتي به بشكل مقصود وممنهج، كأن بيننا ثأر، فلم يكتفي بتلك الكلمات التي قالها في المرة الأخيرة.. بل أخذ شكّه بي منحىً عمليًا ليخضعني لاختبارات وامتحانات ثم يكذّب نتائجها ويقتل الحقيقة ليصدق ما يريد

°°

كل الناس غرباء بمجرد فقدهم للحب ”

علي الماجد

خرجت من الحمام.. مثقلة بالألم، لم لا تسير الحياة ببساطة، لم يجب أن تكون بهذا التعقيد كله، ما الذي يحدث لحكايا الجنيات التي تثقل طفولتنا، ما الذي يحدث لتلك الشعارات، الأشياء الجيدة تحدث للأناس الجيدون، الشخص الشرير لا ينتصر، تعيش الأميرة في قلعة مع أميرها.. والنهاية سعيدة .دخلتُ غرفة الجلوس وجدت إيهاب يقف هناك استدار نحوي وبين يديه كانت الوثائق التي احضرتها من المنزل الريفي، نظرت في عينيه وفرغ ذهني من كل شيء.. هكذا تحدث الحياة، فالمصائب لا تحدث فُرادى، بل في سلسلة معدنية من حلقات متعددة، تجلدك وقد ترديك قتيلًا

⊙⊙⊙

كان يقلب الأوراق بين يديه ببطء.. بينما صوت التلفاز يصدح في المكان..

- كيف حصلت على هذه الأشياء؟

-هل كنت تفتش بين أغراضي؟

أمسك ظرفًا بني اللون ورماه نحوي، فتحته ووجدت بداخله صور لي في المنزل الريفي..

- لقد وصلتني هذه الصور قبل خروجنا من المنزل في دمشق.

- لا زلت تراقبني..

- كنت معه في منزل مغلق ..

-حيث أوجه مسدسًا محشوًا لصدره..

- لم تقاومينه؟ لم لم تنتقمي مني معه؟ لقد كنتما في منزل معزول وحدكما.. وقد أعطيتك مبررًا لتفعلي ..

-لأخونك؟

-لتنتقمي..

- لأنني لو خنتك فقد خنت نفسي.. لو اخترت الانتقام منك فقد كنت لأحترق قبلك..

- لكن لن يعلم أحد..

دمعت عيناي..

– أي منطق أعوج هذا؟ أنا سأعلم، وهذا يكفي، كيف سأواجه نفسي كامرأة خائنة؟

–لكنك تحبينه..

حركت رأسي نافية..

– إنه ماضٍ، أحببته يومًا..

لكن ذلك انتهى مذ تزوجتك..

– لقد كنت وحدك معه، الرجل الذي كنت تعشقين فكيف أمكنك محاولة قتله؟

قلت بصوتٍ ثابت..

– لقد فرض وجوده علي، أنا أم يا إيهاب، ربما كنت أشياء أخرى في الماضي، زوجة وعاشقة وصديقة وحبيبة، لكنني أم، وهذا يجعلني قادرة على قتل كل ما يعترض سعادة ابنتي.

– أنت نبيلة بالفعل.. أنا آسف.. آسف جدًا ..

دمعت عيناه.. فارتجف قلبي.. قلب الأنثى يملك ذاكرة معطوبة، قد تنسى أن الذي أمامها تمساح لو رأت دموعه، وعندها قد يلتهم ذراعها على غفلة منها..

– أسامحك، لكن دعني أذهب وغنى.. لن أقول كلمةً لأي شخص عم رأيت وسمعت، لكن دعني أوصل غنى للأمان..

– أنا لا أستطيع، أترين؟ أنتما تذكرة هروبي، وسأهرب بأي وسيلة..

كان التهديد واضحًا في كلماته..

–ما كل تلك الوثائق؟ جوازات السفر المزورة؟ إقامات عمل مزورة والكثير من الأوراق؟ كأن ذلك المنزل ليس عش غرم فقط ولكن مكتب هجرة لعين..

هل تريدين أن تعرفي فعلًا؟

لا. فقد بتّ واثقة بأن الجهل نعمة فعلًا.. وأن معرفتي بأسراره ستجعلني في خطر أكبر، لو بقيت أجهل هذا كله لما حدث كل ما حدث.. لكنني لم أكن جبانة يومًا. ولن أكون الآن، فقلت رامية مخاوفي كلها عرض الحائط:

نعم.. أخبرني..

بعد الحرب الأخيرة ترك الكثير من الأشخاص مكان إقامتهم وهربوا نحو اسرائيل، وبعد فترة من الزمن أرادوا العودة، لكن اسرائيل جندتهم لخدمتها، وغسلت عقولهم من خرافات العرب القديمة وعلمتهم الأفكار الحديثة ليصبحوا جنودًا لها حيث ذهبوا

همست: جواسيس؟

عقد حاجبيه نظر خارجًا: ليس حقًا، فاتصالهم مع حكومة اسرائيل يتوقف فور خروجهم من حدود فلسطين، ومهمتهم هي اضعاف البلاد التي يعودون إليها بكل وسيلة ممكنة حتى تسيطر عليها اسرائيل بسهولة في الموعد المناسب

اتسعت عيناي وقلت: وأنت تساعدهم على الدخول إلى سوريا؟

نعم..

ليفعلوا ماذا؟

يوزعن المخدرات كيفما اتفق، يُسهلن صفقات سلاح غير مرخص يمكن لأي كان أن يستخدمه، يؤسسن شبكات لتجارة الجسد بكل أنواعها.. كل هذا بشكل سري..

ضحى ودُنيا؟

إنهن يعملن في كل ذلك أيضًا..

أنت شيطان بالفعل

نظر في عيني: ما الغريب في مناصرة الطرف القوي؟ إنه الشيء الوحيد المنطقي والعقلاني لأفعله.

كيان يُبني على تلك القيم.. أن يدمروا كل ما حولهم ليظهروا مرتفعين.. بلا مبادئ.. ذلط الكيان لا يستمر لوقت طويل

سبعة وستون عامًا هو وقت طويل بالفعل

في مقياس حياة الأمم، ذلك لا يعدو كونه لحظة قصيرة، سرعان ما تندثر.

– نوافيكم بآخر تطورات قضية دُنيا، مساعدة رجل الأعمال إيهاب رامي وأختها المغدورة ضحى ..

نظرتُ نحو الشاشة ونظر إيهاب شاحب الوجه..

– حيث وصل إلى مركز الشرطة شريط من جهة مجهولة يظهر دُنيا وهي تدلي باعترافات.. نتابع وإياكم ..انتقل البث من استديو الأخبار ليظهر دُنيا في حال يُرثى لها، بدت مريضة وتحيط بعينيها هالات سوداء، وعينين حمراوين دامعتين.. وقالت بصوت مرتجف..

– إيهاب.. حبيبي.. إذا وصل هذا التسجيل للشرطة فهو يعني أنني في خطر.. أو أنني ميتة.. وأنك من قتلني.. وليست هذه المرة الأولى، فقد قتلتني عندما تزوجت ملاذ.. أتذكر؟ والتي أظن بأنها صارت تعلم بأمر منزل الريف، فقد طلبت منهم الاتصال معها لو لم أرد على اتصالهم.. أنا آسفة ملاذ.. حاولت كرهك ..لكنك ألطف من كل المحاولات، وجزء كبير من دافعي لهذا الاعتراف هو شعوري بالذنب نحوك، فلا تستحقين أن يخدعك إيهاب بهذا الشكل، كما خدعني، وهذا يوصلنا للمرة الثانية التي قتلني بها إيهاب..

أخذت تمسح دموعها، وحاول إيهاب إطفاء التلفاز ولكنني أمسكت بذراعه وقلت :

-حقًا؟ لا تمانع أن يعلم العالم كله بخيانتك ولكن لا أعلم أنا؟

-لا يعنيني العالم، لكنني ورغم كل شيء، أحبك..

- كاذب..

وعادت دنيا لتكمل..

- قتلني عندما أقام علاقة مع أختي التوأم.. رجل مريض أعلم.. لكن الحب يعمينا عن مساوئ المحبوب ويجعلنا نعبد حسناته.. أخجل عند اعترافي بحبي لرجل كهذا.. بل أظنني مريضة به.. ولا شفاء لي، حتى بعد قتله لي مرة ثالثة، عندما علمت بحمل أختي منه، بقيت أساعده.. وهنا أوجه رسالتي لملاذ، أعلم بأنك تشعرين بالحزن لأن إيهاب متباعد عن ابنته، فهاك السر، فقد كان يظن نفسه عقيمًا.. وقد صدق ذلك لسنواتٍ كي يتهرب من كل فتاة يقابلها وتحمل منه ..أظنك بت تعلمين بعلاقاته الكثيرة، وهكذا عندما حملت بغنى فقد صدق كل السيناريوهات التي حاكها في عقله عنك، عدا كونه الأب، حاك بعقله أن الإلقاح الصناعي تم بسائل منوي يخص رجلًا آخر.. وأن غنى ليست ابنته، وهكذا بقي يعاملها كطفل غريب.. لكن حمل ضحى جاء

كدليل قاطع.. فهي لم تدع للظن مكانًا.. وقامت بتهديده لفضح كل شيء.. وصرت أساعدها رغم جراح قلبي، ولهذا ترون هذا التسجيل الآن.. إيهاب يقوم بتهديدي.. وقز ينفذ تهديداته في أي لحظة.. ما عدت اهتم لشيء حقًا.. بات الموت والحياة سواء.. لكن ربما سأعطي لموتي معنى وهدف افتقدتهم في الحياة.. وربما أنقذ طفلة صغيرة وامرأة لا ذنب لها.. إيهاب.. حبيبي.. إن قتلتني فهذه تحية من وراء الحياة، كل سر سينكشف.. إنها رائحته النتنة العصية عن الإختباء ..كانت الدموع تغطي وجهي، صفعت إيهاب بقوة وانهلت عليه بالضربات..

- إنها ابنتك أيها الغبي.. تباً لك ..

حاول تهدئتي وضمي بين ذراعيه لكن ذلك زاد اشتعال غضبي وحسب.. وأخذت أحاول ضربه بقوة أكبر.. إلا غنى.. دفعني عنه.. وهويت للوراء.. كنت أسقط ببطء، ثم شعرت برأسي يرتطم بقوة.. وصعقتني صدمة الارتطام كتيار قوي من الكهرباء ..بعدها ما عدتُ أحس بشيء

ooo

الأشياء تمرُ بسرعة.. كأنني أراقب تعاقب الأسود والأبيض.. أخذت أحرك جفني ..أحاول تحديد طبيعة ما أراه بعيوني.. وحركت رأسي ببطء.. كنت على متن سيارة متحركة.. عندما حاولت تحريك يدي وجسدي لم أستطع.. شعرت بالذعر، كنت مقيدة ..وأخذت أشد على يدي لأحررهما..

– اهدئي يا حبيبتي..

صوت إيهاب.. نظرت نحوه، كان يقود السيارة بنا..

– غنى..

– نائمة في الخلف..

أحسست برقبتي وهي مبللة.. حاولت النظر للخلف، كأنه يمكن للإنسان رؤية رقبته.. لكني لمحت الدماء تغطي ثيابي من الخلف..

– إنني أنزف..

قلت بضعفٍ، تسللت رائحة الدم لأنفي..

– آسف ولكن لا يمكنني اصطحابك لمستشفى، فقد يقبضون علي بسبب دُنيا واعترافها..

– إذًا ستجلس هناك وتُشاهدني أنزف حتى أموت؟

–سأجد حلًّا..

أخذت دموعي الساخنة تتدفق ببطء.. وأنا أنظر باتجاه صغيرتي.. صرنا كلانا ضعيفتين، هي مريضة وأنا مُصابة.. كنا وحيدتين معًا.. تكورت شفتها الصغيرة بحزن..

– لقد قتلت ضحى..

– كنت أعطيها حبوبًا لتجهض الجنين فقط.. هي نزفت حتى الموت، ذلك ليس خطأي..

– هل قتلت دُنيا؟

لم يجب..

– هل ستقتلني؟

هز رأسه نافيًا.. زفرت أنفاسي ونظرتُ للخارج.. مم جعلني أحس بدوار وغثيان..

– كيف أمكنك فعل كل تلك الأشياء الفظيعة؟ تخون وتقتل..

انسابت الدموع من عيني، وعُدت أحاول تحرير يدي، كانت القيود تتآكل جلدي كلما قاومت أكثر، وحفرت علامات حمراء دامية في كلّ معصم..

– توقفي..

– أبدًا، لن أتوقف عن مقاومتك ما حييت..

أوقف السيارة وأخذ يفك العقد في الحبل الذي يقيدني.. وعندما تحررتُ صفعته على وجهه بضعفٍ فتلطخ بالدماء.. ثم أشحت وجهي عنه، وأكمل الطريق..قدرتي على المقاومة تتسلل من جسدي مع كل قطرة دماء..

– لقد وجدت الهاتف الذي معك..

نظرتُ نحوه بعينين مُتسعتين فيم اندفع الأدرينالين مُنتشرًا في جسدي .. وتسارعت في قلبي النبضات.. أخرج الهاتف من جيبه ورفعه في وجهي ثم رماه من نافذة السيارة بقوة..

– لا تخافي هكذا.. فقد نفذ شحن بطاريته.. هل أعطاه لك؟ حاولت إعادة شحنه لكن المنفذ معطوب.. يبدو أنك متآمرة صغيرة رغم كل شيء..

– ألا يحق لي حماية ابنتي من أب يظنها ليست منه؟

–عشت عمرًا من شكوك مستمرة يا ملاذ، بلا انتماء، أو وطن، وعندما اخترت لنفسي وطنًا بدأت المعاناة لإثبات ولائي أو يتم طردي، فالغرب قاسٍ، يجب أن تثبت انتمائك إليه، ليس كأوطانكم، فهي كأمهات تحب جميع أبناءها، المريض منهم والسليم، تخنقهم بحبها ولا تملك غير الحب لتقدمه، فيضطر الموهوب منهم أن يكون عاقًا فيهجرها، ويضطر العادي لاحتمال فقر كل ما فيها ليعيش..

– أوطاننا بها الكثير من الموهوبين..

– لكنهم لا ينتمون إليها، يعيشون في طبقة خاصة بهم، محصنة ضد العامة، يتسوقون في أماكن مخصصة، يتناولون طعامهم في شرفات تطل على العالم السفلي تحتهم، بل يظنون أنهم يقومون بمعروف لبقية الناس لأنهم باقون لم يهاجروا، ولا يوفّرون فرصة لقول ذلك، ربما تعيش

الطبقات فوق رقعة تراب واحدة، لكن وطن الأغنياء مختلف عن وطن الفقراء، مهما بدا وطنًا واحدًا.

كان تركيزي على كلماته ينخفض، كنت أتابع الإشارات إلى جانب الطريق بذهن غائب، إننا في المنطقة الجنوبية للبنان، نقترب من الحدود اللبنانية الفلسطينية، كانت السيارة تعب المسافات عبًّا، أم أن عقلي أخذ يفسّر الأمور كما يحلو له ليتناسى النزيف والألم، قدّم إيهاب لي علبة عصير فراولة، كان السائل بداخلها كالدم تمامًا، شربتها بسرعة ونهم، كنت عطشى وجائعة وطافحة باليأس، أوقف إيهاب السيارة بجوار باب حديدي متطاول ومُحكم الإغلاق، ثم أجرى اتصالًا.. سمعت كلماته متفرّقة..

(وصلنا.. لا أظن.. حسنًا)

ثم فُتح الباب الكبير مُصدرًا صوتًا كنحيب الأشباح في الأوبرا، قاد السيارة للداخل وانغلق الباب ببطء خلفنا، شاهدته وأنا أختنق، صرت وغنى سجينتين مرة أخرى، كنا نقترب من منزل جدرانه الخارجية من رخام لامع، يفصل بينه وبين البوابة الحديدة مسافة خمس دقائق بواسطة

السيارة، أي ما يقارب ستة كيلو مترات، مم سيجعل محاولة الهرب شبه مستحيلة.. أوقف السيارة أمام المنزل ونزل بنشاطٍ منها، فتح الباب الخلفي وحمل غنى وحقيبة أمتعته فقط، نزلت بضعف ..قلت له :

-أين أمتعتنا؟

-لم أحضر أيًا منها.. فبعد أن وجدت الهاتف معك علمت بأنه أداة تجسس، وما هي إلا مسألة وقتٍ حتى يلحق بنا حبيبك ورفاقه..

- ليس حبيبي..

اتجه نحو المنزل.. فتحت باب السيارة الخلفي وأنا أحمل علبة المحارم وصعدت أجلس على المقعد بضعف.. نظر إيهاب نحوي رافعًا حاجبيه..

- سأمسح الدماء وألحق بك ..

دخل المنزل وترك الباب مفتوحًا خلفه، حركت يدي داخل جيب الكرسي وحملت ما بقي من أمتعتي وكنت قد خبأته.. لن يستطيع تمام إيجادنا لينقذ غنى بعد الآن، باتت تلك مهمتي وحدي، ورغم نزفي ورغم جروحي يجب أن أخلع ثوب الضحية وأرتدي ثوب الصياد..

دخلت المنزل الرخامي ببطء، برودته امتصت البقية من حرارة جسدي والتي لم تمتصها الدماء النازفة، كل ما بي كان منهارًا، لكن عظامي أبت أن تنحني، الأم بداخلي تأبى الإستسلام، كان زوجي يقف بجوار رجل عادت ذاكرتي للماضي لتخبرني بأني أعرفه إنه تامر، هذا الرجل نفسه الذي قدم إيهاب لي قبل خمس سنوات ونصحني بمرافقته خلال رحلة العودة إلى دمشق بعد فراقي وتمام.. قلت ساخرة:

- لست صديق والديّ إذًا..

التوت شفته مُظهرة أسنانه شديدة البياض كأنه ينظفها بالدماء..

- كنت صديق أمك خلال الدراسة، كنت واقعًا في حبها، لكنها عشقت والدك، صديقي الكاتب، وتزوجها رغم علمه بحبي لها، كرهتهما وكرهت قضايا الوطن معهما، بينما صنعت إسرائيل مني الرجل الذي لا يخضع لأي قوانين كما ترين..

- لست أرى رجُلًا..

ضحك بصوتٍ عالٍ.. كانت غنى تقف متوارية خلف ساق إيهاب، تنظر نحوي بينما شفتها ترتجف، لكن لا وقت للدموع الآن يا قلب أمك..

– أنت مُقاتلة كوالدتك، رؤيتك تقفين أمامي تحيي بقلبي نار الشوق لها..

همس إيهاب له ..

–إنها زوجتي، فتوقف عن هذا..

أمسك تامر بياقة إيهاب وابتسم في وجهه إبتسامة سامّة..

– الإدارة العليا غاضبةٌ منك.. أتعرف؟ هناك أمر بتصفيتك كونك تُشكّل خطرًا على أمن إسرائيل، فذاك الرجل يلاحقك منذ سنين..

– لقد تخلصت من كلّ ما يُمكن أن يدله على طريقٍ للوصول إلينا كما أخبرتك..

حاولت غنى الاقتراب مني، لكن تامر حملها برعونة بين ذراعيه فيم أخذت تئن بضعف.. فقلتُ له من بين أسناني :

–دعها.

اقترب مني وأمسك بذقني فانتصبت شُعيرات جسدي كما لو أن أفعى تُلامسني..

- أمك تبلغك التحية، كان صوت بكاؤها كأجمل موسيقى أسمعها خلال سنوات ..أتدرين أن دموعها صنعت ألذّ طبق يمكن تذوقه؟ أتدرين ما هو؟

-اترك ابنتي (عدت وزمجرت من خلال أسناني، فيم ردّ وهو ينفض ذقني من أصابعه (

-إنه الانتقام.. كنت سأتلذذ بطبقي أكثر لو كان والدك حيًّا لكن أمك انتقمت منه بدلًا عني، دفنته حيًا ..فجأة انطلق صوت رصاص في الأجواء.. فيم بدا أنه تبادل إطلاق نارٍ.. دفعني تامر لأنخفض نحو الأرض واختطفت ابنتي من بين ذراعيه، أخرج جهاز إرسال من جيبه وصرخ عبره:

- ما الذي يحدث في الخارج. أجبني .

وردّ صوت رجل عبر إشارات راديو الجهاز..

- المكان مُحاصر بعناصر المقاومة سيدي.. العدد التقريبي أربعين رجُلًا..

صرخ تامر بإيهاب..

- أحمق، غبي، كيف لحقوا بك؟

رد إيهاب بهزة من رأسه وهو يبدو شاحب اللون، أمسك تامر رقبتي بين يديه ودفعني للخلف فارتطم رأسي بالباب وشعرت بالدوار.. فيم شددت ذراعيّ حول ابنتي وأنا اختنق، اخرج تامر مسدّسًا من جيبه ووجهه نحو إيهاب وقال:

- زوجتك وابنتك تذكرة خروج رجل واحد من هنا.. ولن يكون أنت..

همست..

- لا تقتله..

ضيّق تامر الخناق على رقبتي، دمعت عيناي ونظرت في عيني زوجي وخفق بي عبق الحنين القديم، فأشحت وجه غنى كيلا ترى ما يحدث، واندفعت أقاوم بما بقي من حلاوة روحي.. توقف صوت الرصاص

بالخارج، ولكن الرصاصة في داخل المنزل انطلقت ..صرخت لا، لكن صوتي أبى الخروج، كأنني أعيش في كابوس، لحظة صمتٍ ميت تبعت ذلك الانفجار، فتحتُ عيني.. كان إيهاب مرميًا على الأرض، فيم أولى قطرات الدماء تسيل منه، أمسك تامر ذراعي بعنف وأخذ يجرني خلفه، بقيت أثبت رأس غنى كيلا ترى والدها بذاك الشكل فيم أغرقت دموعها رقبتي لتحرق قلبي وجسدي ..أخذ تامر يجرني لنصعد الدرج نحو الطابق الثاني فيم اندفع الباب خلفنا وانفتح، فأمسك تامر بي من الخلف وحشر مسدسه في رأسي.. ووقفنا نواجه تمام والرجلين الذين حوله ..كان تمام ينظر نحوي، في عيني تمامًا بينما سلاحه موجّه نحونا، وقد تبادلنا الأدوار، بت في مرمى نيرانه.. ونيران تامر.. لكنني مثله لم أشعر بخوف..

- أخيرًا التقينا.. بماذا أدعوك؟ المهندس تمام؟ أم الشاعر؟ أم العاشق؟

رد تمام من بين أسنانه

-اخرس..

أصدر تامر صوتًا بلسانه يدل على الاستنكار.. وردّ..

– حسنًا، لن أطيل الكلام، حريتي مقابل حياتهما، فما جوابك؟

–ماذا تريد؟

–ستأتي مروحية لتنقلني إلى إسرائيل..

– لك ذلك..

– لا تتذاكى، ستبقى ملاذ وغنى مقيدتين وخاضعتين لمرمى نيران المروحية حتى أصبح في مأمن من نيرانكم، رصاصة واحدة منكم وتفقد إحداهما أو كلتاهما حياتها.. اتفقنا؟

–ماذا لو سحبت قواتي كلها لما خلف السور، وتسلمني الرهينتين فور صعودك الطائرة وأكون أعزل..

قال أحد الرجال:

– تمام، لا يمكنك أن تأتمنه..

رفع تمام يده بإشارة ليُسكت مُرافقه.. رد تامر:

– هل تثق بي أيها العربي؟

نظر نحو تامر للحظة وعاد ينظر في عيني ورد:

– ما جوابك يا تامر؟

-سألتزم بالخطة التي قلتها لك، فما قولك؟

قال تمام بلا تردد:

-موافق..

أخذ تامر يجرني من جديد للصعود نحو أعلى، حاولت التركيز فيما كنا نسير بشكل معاكس، كانت عيناي مُعلقتين بعيني تمام فيم ذراعي محيطتان بابنتي، ثم ما عدت أراه وقد صرنا في الطابق الثاني وأخذنا نصعد درجًا جديدًا باتجاه السطح.. وصلنا السطح ودفعني للدخول لغرفة صغيرة وعندها تركني ليقفل الباب الثقيل فأفلت غنى بحركة واحدة ورفعت المسدس الذي كنت أخفيه في ثيابي طيلة الوقت نحو صدره.. هو المسدس الذي أخذته من المنزل الريفي ووجهته نحو تمام، وهو الشيء الوحيد الذي خبأته في سيارة إيهاب خلال رحلة هروبنا من دمشق ..نظر تامر نحوي مصدومًا ارتجفت يدي للحظة لكنني أطلقتُ الرصاص.. للمرة الثالثة.. واندفعت للخلف.. فيم ملأ صوت تحليق المروحية الجو حولي.. كان تامر مرميًا على الأرض وهمس بضعف..

- إن خرجت من الغرفة وحدك فسوف يقتلك الرجال في الطائرة..

– سأقتلك وعندها سيرحلون..

– سيقصفون حبيبك ورفاقه.. عندها تكونين السبب في مقتله ومقتل إيهاب بما أنهم لن يتمكنوا من إسعافه..

– ما الذي تريده؟

–ستساعديني لأخرج وأصعد على متن الطائرة وستبقين لابثة في مرمى النيران ريثما أصبح في أمان..

– لا..

– سيقتلك من في المروحية وابنتك إن لم أخرج خلال دقائق..

بصقت في وجهه فضحك ثم غضّن وجهه وهو يشهق ألمًا.. وقلتُ..

– غنى ستبقى هنا وإلا سأقتلك وأرميك خارجًا..

لم يرد.. ركعت بجوار صغيرتي وقلتُ لها والدموع تطفح من عيني دون قدرة على إيقافها، كانت روحي تنسحب من جسدي فيم الدماء تتسرب ببطء والتعب يكتسحني بقوة ولكن قلبها الصغير لا زال يحثني لأقاوم..

– ماما ستساعد هذا الرجل ليخرج، ولكن غنى الجميلة والتي تنفذ كلامي ستبقى هنا بانتظار ماما حتى تعود.. صح؟

نظرت في عيني وقد تكورت شفتها لأسفل وهي على حافة البكاء..

– غنى، لا تبكي، أريد منك العد حتى المائة، وبعدها سنعود ونذهب لزيارة جدتك، حسنًا؟

أومأت بنعم وبدأت تعد، ساعدتها لتجلس وأنا أختنق بدموعي.. ربما أراها لآخر مرّة، ربما..

– ماما تحبّك كثيرًا.. تعرفين ذلك صحيح؟

هزّت رأسها بنعم..

– أحبك ماما ..

ضممتها بشدّة وهمست:

– بابا يحبك أيضاً، لن نتركك قط سنبقى دومًا هنا..

وأشرتُ نحو قلبها.. فهمست :

–هنا؟

وضعت يدها الناعمة فوق قلبها وأحسّت بالنبض لأول مرّة.. وقلتُ لها:

- سيقول لك على الدّوام بأنني أحبك..

ألصقت قلبها فوق قلبي، أخذت تبث بي الحياة..

- هل انتهيتما؟

عدت وأجلستها وأخذَت تعد.. واحد، اثنان..

اتجهت لأساعد تامر على النهوض، وعندما وقف نكزته بقوة في مكان الإصابة فانحنى على نفسه من الألم- ..عندما أحادث ابنتي لا تتدخل..

خرجنا ببطء من الغرفة، وجدتُ رجالًا بثياب عسكرية عليها علم إسرائيل يقفون على السطح وقد تدلى سلم من الطائرة التي بدت معلقة بين الأرض والسماء فوقنا..

همس تامر بصوتٍ كالفحيح..

- ستبقين في مرمى النيران حتى أغيب عن نظرك، وإن تحركت سأعطيهم الأمر لقصف الغرفة التي بها ابنتك، هل تفهمين؟

-أتمنى لك رحلة نحو الجحيم..

ساعده الجنود لصعود الطائرة..وفرغ السطح إلا مني، وأخذت الطائرة ترتفع..

– ماما..

استدرت في مكاني.. اتسعت عيناي فيم غنى تقف بباب الغرفة تناديني بأعلى صوت..

– عودي للداخل غنى ..

لكنها ركضت نحوي ..ضممتها بين ذراعي وتكورت حولها لأحميها من الرصاص وتمنيت تلك اللحظة أن تعود إلى رحمي ..لم يحدث أي شيء..

– ملاذ !

نظرت نحو الباب المؤدي إلى السطح.. كان تمام يقف هناك.. وأخذ يتقدم بثقة نحوي ..ركع أمامي وقال :

–ستركضين نحو باب الدرج بشكل متعرج ..

رددت بكلمات متقطعة وبصوت هستيري..

– لا.. غنى.. سيطلقون الرصاص وقد تتأذى..

– لا تقلقي.. أرجوك ثقِ بي، عندما سيبلغون ارتفاعًا وبُعدًا محددًا سيقصفون المكان ونموت كلنا ..

اتسعت عيناي.. لا عهد لهم..

– هل تثقين بي؟

–أثق بك..

– سنتحرك بسرعة خاطفة.. بخط متعرج، بتناغم تام، لطالما كانت روحينا متناغمتين.

كنت قريبة منه كما لم أكن منذ زمن طويل، وشعرت بالأمان..

– حسنًا..

وقف خلفي وقال بحدة:

– الآن ..

ركضنا بخط متعرج، كنت أضم غنى وأنا منحنية للأمام فيم يظللني هو بجسده ..سمعت صوت رصاص.. تبعه صوت انفجار اختلط بصوت تمام وهو يصرخ (أحبك) فيم اندفعتُ وغنى عبر الباب وارتميت أرضًا

ولم أسمع غير صوت طنين.. لم أترك غنى لحظة.. ضممتها بضعف.. وانهرتُ أخيرًا لعالم النسيان.

°°°

-ملاذ..

كأن قلبي يناديني..

- ماما..

كأن روحي تناديني..

أخذت أرمش بعيني..

- ماما تفيق..

فيم إصبع صغير ينكز خدي.. يلج لقلبي لينعشه ..فتحت عيني أنظر لسقف غرفة مزركش.. استدرت برأسي نحو الأصبع الصغير ورأيت ملاكي الحارس..

- ماما تحبك..

همستُ لها بصوت متقطع فيم حلقي جاف كالقطن.. ومن خلفها واجهتُ عينيه.. تساقط المطر على غابتيهما عندما رأى عيني..

- يجب أن نصطحبك للمستشفى..

حركت عيني حول جسده.. كان مدمّى.. همست بضعف..

- أنت تنزف..

انهار أرضًا وضحك من بين أنفاسه وهو يهمس بألم..

- إنه جرح سطحي..

...

تحرك الرجال من حولنا.. وضعوني على نقّالة فيم بقيت أضم ابنتي وأرفض تركها لأي سبب كان، وضعوني في سيارة إسعاف ووضعوا قناع التنفس فوق أنفي وفمي وأصبح صوت نفير الإسعاف هو الوحيد في الأجواء..

°°°

كنت مُستلقية على السرير في المُستشفى حيث قاموا بنقلي، غنى تنام بسلام على سرير بجانبي وقد أحاطت الأربطة الطبية بعنقي لتخنقني بلطف مُبالغ فيه، بينما انغرزت إبرة المغذيات الوريدية في يدي تُمدني بالأملاح، رغم أني كنت أحس بملوحة الحياة كلها قد ترسّبت فوقي،

دمعت عيني بينما نظرت عبر النافذة إلى الخارج، إيهاب يلبث في مستشفى تابع للسجن قريبًا من مكاني، أعلم ما يمكن أن يحدث الآن، تهمة الخيانة ثابتة عليه سيُحكم عليه بالإعدام.. وعندما ستسألني غنى عم حدث لوالدها لن أجد غير الصمت لأجيبها به، لا يوجد غير حل واحد لأحميها من كل تلك الفوضى، من أن يأتي يومٌ وينعتها أحدهم فيه ب ابنة الخائن.. أو ابنة العميل..

في التطورات المُتسارعة لقضية رجل الأعمال إيهاب رامي وصل الشرطة تسجيل مُصور من المغدورة ضحى يحمل اعترافًا بصوت إيهاب رامي يقول فيه بأنه قد قام فعلًا بقتل دُنيا، وسبب فقدان دليل القتل هو أن إيهاب قد قام بإذابة جثة المغدورة بالأسيد وقد هدد ضُحى بمصير مُشابه إن لم تنفذ ما أمرها به بالتخلص من الجنين الذي تحمله في أحشائها..وهو الأمر الذي قام به بالفعل لاحقًا.. مم يضع نهاية مأساوية ومُظلمة لهذه القضية المُعقدة..

وعندها انخرطتُ في بكاء مرير.. لقد نجوتُ بأعجوبة رغم كل شيء.. نمتُ مع الوحش ولم يلتهمني.

..

حضرت أمي بعد فترة قصيرة، لم تنطق كلمةً واحدة، ضمتني بين ذراعيها وأخذت تبكي بحرقة، وانضمت غنى للعناق، وعندها فقط أحسست بجسدي قد عاد قطعة واحدة كما كان قبل سنوات، عندما كنت مُراهقة يُحيط بها والديها بأمان..

بعد أن هدأت أمي قالت:

ما كان يجب أن اتركك قط، مهما صارت الحياة صعبة مع والدك ما كان يجب أن أبتعد لتلك الدرجة كما فعلت، لأدفعك للبحث عن الحب في مكان آخر.. ولهذا ستسافران معي، ولن أترككم مرة ثانية..

ماذا عن زوجك؟ رُبما لن يسره الأمر..

لا يهمني.. سأتركه إن اضطررت..

ابتسمتُ.. كنت وإياها مُندفعتين لدرجة التهور.. وقلتُ بتسامح:

لا تقلقي ماما.. سنفكر في حلٍ معًا..

..

استلقيتُ وحدي في الغرفة، الساعة الحادية عشر والثلث ليلًا، وقد عادت أمي للفندق لترتاح وقد طلبت منها ذلك، وأخذت غنى معها لتغير لها ثيابها وتغسل جسدها وتمنحها ليلة نوم هادئ بعد ذلك العنف كله، نظرتُ لخاتم الزواج في يدي.. وقد فقدت الحجر الألماسي الذي كان فيه بسبب الانفجار، تاركًا خلفه الذهب الأبيض فارغًا.. تردد صدى كلمات إيهاب كلها في عقلي، فخلعتُ الخاتم ورميته عبر الغرفة وعدت أبكي من جديد..

..

لم أنم تلك الليلة.. قضيت الليلة مع الأشباح، زارني طيف والدي مرارًا.. زارني طيف أيامي في البرازيل كم كنا سُعداء، ربما أحمل غنى وأذهب لأعيش هناك معها من جديد.. البرازيل بعيدة كفاية عن كل ما حدث هنا، عن خيبات القلب وخيانة الروح والكثير من الجروح..

طرق باب الغرفة، فنظرتُ نحوه والدموع لا تزال مُعلقة برموشي..

إنه تمام.. يحمل فنجاني قهوة في يده..

=هل يمكنني الدخول؟

همستُ: =أفضّل ألا تفعل..

بقي واقفًا هناك، ينظر نحوي، كان الضماد يُحيط بكتفه الأيسر.. وهو يرتدي بنطالًا رياضيًا وسترة قطنية مُشابهة.. يكتسي بالأسود..

=لقد عنيتُ ما قلته لحظة الإنفجار..

=لا مكان لتلك الكلمة بيننا يا تمام، فبيني وبينك مسافة كبيرة لا يمكن لأي وسيلة نقل أن تقطعها.

=شكوكي وكلامي الجارح دفعاك للزواج بأول رجل ظننته مُناسبًا.. كل ما حدث لك كان بسببي.

زفرتُ أنفاسي بتعب: =ما حدث قد حدث، ليس خطأ أحد أو ذنب أحد، الكثير من الزيجات تفشل للكثير من الأسباب، وأسباب فشل زواجي خاصة فقط..

=توقفي عن ذلك، أعلم بأنك مُقاتلة ولكن يمكنك أن تُريحي أسلحتك الآن، الحرب قد انتهت..

دخل الغرفة وجلس على الكرسي البعيد بجوار الباب المفتوح..

=أتعرفين؟ كانت السنوات الخمس الماضية كالجحيم وأنا أراقبك من بعيد، لسبب ما كنت أنا الشخص الأنسب لأراقب إيهاب، فبسبب ماضينا معًا لن تشك الحكومة الإسرائيلية بمراقبتي لكم، فالقليل من البحث في ماضيّ سيُظهر نوع العلاقة التي كانت بيننا، وهكذا ستظهر مراقبتي لكِ على أنها أفعال حبيب سابق مهووس بحبيبته ويرفض أن يتوقف عن مراقبتها، وكُنت كذلك، المقاومة أرسلتني لأراقب نشاط إيهاب، ولم أفكر بالأمر، قبلت المهمة فورًا، تركتُ كل شيء، كان يكفيني أن أحس بوجودك حولي لأحس بالحياة..

=لكنك لم تكن قادرًا على دخول سوريا..

=دخلت بهوية مزورّة.. والمزور كان يعمل مع.. إيهاب.. وهكذا حققت الهدفين معًا..

=لِم لم تكشفه مُبكرًا؟

=كان نشاطه مُنتظمًا، يبدو نظاميًا للمراقب من بعيد، كما انه ينشط خلال فترة مُعينة من الزمن ويتوقف بعدها..

=خلال فترة سفري لزيارة أمي..

=صحيح..

=كيف تبعتنا حتى منزل تامر رغم أن إيهاب رمى الهاتف من النافذة؟

=لقد قمتِ باتصال إلى رقم تبيّن أنه يعود إلى إيهاب، وقد حمل إيهاب ذلك الرقم نشطًا معه طيلة الوقت فقُمنا بتتبعه.

=كان يجب أن تُخبرني قبلًا..

=كان يجب أن أقوم بالكثير من الأشياء نحوك بشكل صحيح.. وعادل.. لكنني جبنت.. أنا مُنصف تجاه المتمردين ومُحايد في تعاملي مع المجرمين والقتلة، ولكن عندما يتعلق الأمر بك، أفقد اتزاني كله، يثور قلبي على جسدي، وتُحلق روحي في الفضاء البعيد وتصبح تصرفاتي غريبة كلها.. ومؤذية..

=توقف..

=حاولت أن أتوقف، بعد زواجك أخذت أقنع نفسي بأن هموم قلبي غير مهمة مقارنة مع مصائب العالم ومشاكله، لكنك في قلبي، جعلتني أجمل، أعدتي لي الإحساس، وصرت على قيد الحياة كما لم أكن قط من

قبل، أحببتني بلا حدود رغم كل الأشياء التي كرهت نفسي بسببها، كيف فعلتِ ذلك؟

=لقد مضى ذلك يا تمام.. ما عاد قلبي ملكًا لي.. ولا حياتي.. لقد صارت مُلك أحد آخر..

=وأنا أحبها لأنها جزء منك.

=لا، لقد انتهى ذلك.. لقد تجاهلت التحذيرات بشأنك مرة، وقد احترقت بسبب إهمالي ذاك، ولن أعيد الكرّة من جديد..

=لكنني لست الشخص الأناني ذاته يا ملاذ.. أعدك..

=ما عاد الحب يكفي.. لو كان يكفي لفعل، لا قيمة له بغياب الثقة، وأنت مُصاب بكل عقدة ارتياب تُصيب العربي

=عدم ثقتي بك كان سكينًا قتلني قبل أن يقتلك، وأنا أدفع ضريبة ذلك من خمس سنوات يا ملاذ، أرجوكِ حرريني..

=لقد عاهدتُ نفسي ألا أقع تحت سحر كلماتك من جديد، ولن أخون عهدي ثانية.. أمي لم تحب أبي يومًا وكان هو يعلم بذلك لكنه لم يتقبله أتعلم لماذا؟ لأنه كان يُحبها، يجعلنا الحب نظن بأننا قادرين على إسعاد

الطرف الآخر حتى نُصبح مصدر سعادته، ولكنه يُحيلنا إلى مُستسلمين، لو لم أحبّك بذاك الشكل لقاومت رصاص كلماتك بشكلٍ أفضل..

=أنت كل ما أريده يا ملاذ..

=هذا غريب.. لكنني لن أفعل كوالدي يا تمام، لن أقتل نفسي مرة ثانية لأنك قررت إعادة النظر في الماضي، فماذا لو أعدت النظر إليه مرّة ثالثة؟

=لن أفعل..

=إن فعلت فلن أستطيع إصلاح الأذى الذي ستسببه.. لابنتي.. ولي.. وتلك مخاطرة لن أخوضها..

=استمعي لي.. أنا أحبـ..

=لا.. ذاك ماضٍ..

ثم رأيت الحاضر هناك.. في زوايا عينيه تجمعت دموع الندم.. لكنني كنت مُتعبة للحد الذي لا حد له..

هطلت دموعي بصمتٍ.. تحاكي دموعه، وأكملتُ:

=لن تأمن لقلبي يا تمام.. ظننت بأني قد أقع في حبٍ آخر.. متى كُنت لأفعل ذلك؟ وقد كنا معًا طيلة الوقت؟

=أعلم..

=ارحل أرجوك.. وإلا سأضطر أنا للرحيل مرة ثانية..

=ملاذ..

=يكفي.. أرجوك ارحل..

خرج من الغرفة.. وهذه المرة لم يعد..

..

أحياناً لا تعرف أنك كنت تمتلك هدفاً وتعيش لأجله إلا بعد انقضاءه ،
ومن المحتمل أن يكون هدفاً لا ولم تخطط له بنفسك"

خالد الحسيني

أيلول 2011

لبثت في بيروت مع غنى في منزل صغير في حي مُهمل لا يعلم به أحد، وقد شتتت أحداث سورية التي تحترق انتباه العالم عن قصة إيهاب..

طليقي.. جلستُ أمام التلفاز بعيون غارقة بالدموع أراقب قوافل السوريين تنتشر في بقاع الأرض كلها، كُل واحدٍ منهم يحمل قطعة من أحجية الحكاية كلها على وجهه، أحجية لن يسرّ أحد حلها..

وعندما قررت ترك حزني ومساعدة اللاجئين الذين هربوا من هول الحرب نحو لبنان علمتُ أن الخبر لم ينس فعلًا، وقد كنت مُتهمة كإيهاب بالضبط، بالخيانة..

سافرت وغنى إلى النمسا، لنبدأ الحياة من جديد..

..

أيلول 2021

راقبتُ ابنتي الصغيرة تغني أغنية "سنة حلوة يا جميل" مع صديقاتها السوريات ممن لجئن إلى النمسا بسبب الحرب التي لم تنطفئ بشكل نهائي حتى اللحظة..

نفخت على الشموع لتنطفئ ثلاث عشرة شمعة بسرعة، وتنطلق بعدها موجة من التصفيق الحار.. وابتسمت بعينين دامعتين وهمستُ لها بشفتي دون صوت "أحبك" عندما نظرت إلي عبر جموع الأصدقاء اقتربت مني وضمتني بقوة وهمست:

=هل يمكنك أن تعطيني هديتي التي أريدها الآن؟

=لقد نلت هديتك قبل الحفل..

=بل الهدية التي أريدها حضرت الآن..

أمسكت بيدي ودارت بي نحو الباب، ورأيت تمام يقف هناك، يحمل باقة كبيرة من الأزهار الحمراء وتعلو وجهه ابتسامة..

اقترب منّا وأعطى الزهور لغنى التي حملتها بفرح وعانقته بقوة.. بينما علا وجهي العُبوس.. قالت غنى:

=لطالما رفضتِ أن تعودي إليه لأجلي، كيلا يجرحك كما فعل في الماضي ويجرحني معك، ولكنني صرت كبيرة بما يكفي لأخبرك بأنه لن يفعل، وسوف أكون أسعد ابنة على وجه الأرض لو وافقت على الزواج به.

=غنى..

أنبتها بصوتٍ مُختنق وأنا أنظر حولي..

=إني أنتظرك منذ خمسة عشر عامًا يا ملاذ، سأنتظرك عمرًا كاملًا، ولكن يمكنك أن تنسي الماضي ببساطة وقد مات، ويمكننا عندها أن نعيش بسعادة معًا..

نظرتُ في عينيه.. لم يتركني وحدي قط.. أعرفه منذ عشرين عامًا.. ذهبت غنى للعب مع أصدقاءها ووقفنا متقابلين..

=أنتِ كل شيء بالنسبة لي يا ملاذ، وطنٌ بدل الوطن الذي لطالما نفاني، وكل مكان أعيش فيه بعيدًا عنك يُحيله الشوقُ إليك لجحيم، أرفض حتى التصديق بأنك لن تعودي إلي رغم مرور السنين، تلك الفكرة تعادل ألم إحراقي على قيد الحياة..

=تمام..

=لقد دست على كبريائي الأحمق مرة بعد مرة خلال الأعوام الماضية، في كل مرة أسألك أن نتزوج، وفي كل مرة يكون الجواب لا، ولن أتوقف عن السؤال، فأنا أعلم بأن في قلبك بقية من حب لي، وهذا يكفي كيلا أملّ من الأمل..

غمرني أمل مُشابه للحظة: =هل تعني ما تقول؟

=سأثبت لك ذلك، لعشرين عامًا أخرى، فهل تقبلين؟

أخذ كل ما بداخلي يرتجف.. كأن قلبي ينبعث من جديد..

=كيف لي أن أرفض؟

لمعت عينا تمام بدموع للمرة الثانية مذ عرفته.. وحملتا بداخلهما شمس وعد لا تغيب..

=

انتهت.

"إن الخطر، هو الحياة"

يوكيو ميشيما.

للتواصل مع الكاتبة:

Facebook: Fatema Hashem

Instagram: fatemahashem٩

Email: fatema-٩٣h@hotmail.com

Twitter: @fatema٨bo

حقوق النشر والتوزيع محفوظة

ببلومانيا للنشر والتوزيع